غزوة الأحزاب الثالثة
(أبو العابدين)

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم فهذا كنز من كنوز الإمام المجاهد والعالم الربانى أحمد بن تيمية رحمه الله .
يصف فيها حال الأمة الإسلامية عندما حاصر التتار المرتدون الشام وقارن هذا الحصار بغزوة الأحزاب التى حدثت على أيام الرسول صلى الله عليه وسلم .
والمتأمل فى كلام هذا العالم الصادع بالحق ويقارنها بالملاحم العظيمة التى تمر بها أمتنا الإسلامية الثكلى الجريمة يشعر كأنه يتحدث عن حالنا وملحمتنا والأحداث التى تمر بها الإمارة الإسلامية فى أفغانستان .
وقد جاءت كلماته المنيرة منارة نهتدى بها فى ظلمات الشبهات والفتن التى تنتشر أيامنا لأن هذه الكلمات منبثقة من نور الوحى الإلهى وهدى سنة النبى صلى الله عليه وسلم .

فتكلم أبن تيمية رحمه الله عن حصار التتار للشام بقوله (فإن هذه الفتنة التى ابتلى بها المسلمون مع هذا العدو المفسد الخارج عن شريعة الإسلام قد جرى فيها شبيه ما جرى مع عدوهم على عهد رسول الله صلى الله وسلم فى المغازى التى أنزل الله فيها كتابة وابتلى بها نبيه والمؤمنين : ما هو أسوة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً) .

ويرى المسلم أيضاً فى هذه الأيام هذه الأحداث العظام مع هذا الكافر الأكبر واعتداؤه على المسلمين المجاهدين فى أفغانستان شبيهاً بما حدث للمسلمين على عهد النبى صلى الله عليه وسلم فى غزوة الأحزاب وشبيهاً بما حدث للمسلمين فى الشام فى زمن ابن تيمية .

قال ابن تيمية (ما هـو أسـوة لمـن كـان يرجـو اللـه واليـوم الآخر وذكر الله كثيراً إلى يوم القيامة)

فإن هذه لأحداث لا يستفيد منها إلا من كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً إلى يوم القيامة فإذا عملت أن لا يرجو الله واليوم الآخر إلا لمن تأس بإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فى تبرأة من المشركين وإظهار العداوة لأعداء الله مع قطع الموالاة بينه وبينهم .
قال تعالى (لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) بعد آيات التبرأ من المشركين .

قال ابن تيمية رحمه الله (فإن نصوص الكتاب والسنة اللذين هما دعوة محمد صلى الله عليه وسلم يتناولان عموم الخلق بالعموم اللفظى والمعنوى أو بالعموم المعنوى) .

والعموم اللفظـى معـروف وهـى ألفـاظ العمـوم مثـل كـل وجميع وقاطبة والأسماء الموصولة . وغيرهما .
أما العموم المعنوى وهى العبرة وهى القياس ..والقياس إلحاق فرع بأصل فى الحكم لاشتراكها فى العلة والفرع هو حالنا والأصل هو ما حدث على أيام الرسول صلى الله عليه وسلم
والحكم بالنسبة للكفار الهزيمة وبالنسبة للمؤمنين النصر والعلة وهى الكفر والإيمان .

فقد قال ابن تيمية (وعهود الله فى كتابه وسنة رسوله تنال آخر هذه الأمة كما نالت أولها وإنما قص الله علينا قصص من قبلنا من الأمم لتكون عبره لنا فتشبه حالنا بحالهم ونقيس أواخر الأمم بأوائلها فيكون للمؤمن من المتأخرين شبه بما كان للمؤمن من المتقدمين ويكون للكافر والمنافق من المتأخرين شبه بما كان للكافر والمنافق من المتقدمين ثم قال ابن تيمية : فأمرنا أن نعتبر بأحوال المتقدمين علينا من هذه الأمة وممن قبلها من الأمم وذكر فى غير موضع : أن سنته فى ذلك سنة مطردة وعادته مستمرة .)
ثم بدأ ابن تيمية يصف حال هذه الحادثة كأنه يصف حادثتنا (....لا سيما فى مثل هذه الحادثة العظيمة التى طبق

الخافقين خبرها واستطار فى جميع ديار الإسلام شرها وأطلع فيها النفاق ناصية رأسه وكشر فيها الكفر عن أنيابه وأضراسه وكاد فيه عمود الكتاب أن يجتث ويحترم وحبل الإيمان أن ينقطع ويصطلم .....)إلى آخر كلامه العميق الرائع الدقيق .

ولى هنا ملاحظة – لقد كانت هذه الحادثة عظيمة جداً لدرجة أن بن تيمية يصفها بقوله (وحدث من أنواع البلوى ما جعلها قيامة مختصرة من القيامة الكبرى .)

ويصف حال الناس فيها قبل سطور بقوله (ونزلت فتنة تركت الحليم فيها حيران وأنزلت الرجل الصاحى منزلة السكران وتركت الرجل اللبيب لكثرة الوسواس ليس بالنائم ولا اليقظان وتناكرت فيها قلوب المعارف والإخوان حتى بقى للرجل بنفسه شغل عن أن يغيث اللهفان) .

وأنظر وصفة لأثر هذه الحادثة على دولة الإسلام والإيمان فلنسأل بعد هذه الأوصاف الدقيقة الشديدة أساتذة المصالح الظاهرة السطحية الجزئية الظنية الوهمية ..

ونسأل الـذين قـالوا فـى حادثتنـا هـذه (أدخلـوا الأمـة فـى معركة لا طاقة لها بها) .!

أليست هذه الحال التى يصفها ابن تيمية هى حالنا وحال دار الإسلام فى أفغانستان ؟ ولا أقول مبالغاً إذا قلت بل أشد ؟ وأليست سنة الله مطردة وعادته مستمرة ؟ وأليست هذه الحادثة التى تحدث عنها ابن تيمية مثل حادثة غزوة الأحزاب التى حدث على أيام الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ وكانت غزوة الأحزاب بسبب غزوة بدر التى قطعت رقاب الكفار .

فهل الرسول صلى الله عليه وسلم و الصحابة أدخلوا الأمة الإسلامية الصغيرة والدولة الإسلامية الوليدة فى المدينة فى حرب لا قبل لهم بها..؟! ألم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم يستطيع أن يستقر فى هذه الدولة الصغيرة ويكثر من أتباعه بالدعوة ويربى الصحابة وينميها شيئاً فشيئاً ويتجنب الصدام مع المشركين ألم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذى أرسل السرايا قبل بدر ليجاهد المشركين ..؟

أليس هو الذى ذهب هو والصحابة لأخذ العير فكان النفير وكانت دولته وليدة صغيرة مجموعة قليلة من المهاجرين المجروحين المعذبين المستضعفين ومجموعة قليلة من الأنصار مع وجود ثلاث قبائل من اليهود الخبثاء الماكرين الذين ينتهزون أى فرصة للقضاء على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع وجود عدو جديد داخل الصف الإسلامى وهو المنافقون ومع وجود دولتين عظيمتين هما الروم والفرس فإذا فكرنا بمنطق أساتذة المصالح الظاهرة لكان المفروض أن يكثر من أتباعه ويتجنب الصدام ويبنى الدولة الإسلامية ولا يدخل الأمة الإسلامية فى معركة غير متكافئة .
وانظر يا أخى المسلم أن ما حدث من قتل وتشريد وتعذيب وتدمير واعتقالات واستيلاء المرتدين على بلاد من الإمارة الإسلامية وتكشير الكفر عن أنيابه ومصادرة أموال كثيرة وتحريق مساجد هنا وهناك وتضيق على الشباب المسلم فى العالم كله وغير ذلك.. هى مفسدة متحققة سواء كان هناك مجاهدون أم كان هناك مرتدون أو عملاء أو موالون للطاغوت سواء قتل صناديد الكفر فى بدر أمر قتل آلاف النصار فى أمريكا أو لم يكن ..فإن المفاسد متحققة فى أمة الإسلام فلا داعى لهدم الجهاد فإن شلالات الدماء المسلمة قد سالت وتدفقت فى أرض البوسنة والهرسك بدون ملحمة عظيمة تهز قلعة الكفر أمريكا .
وقوافل المغتصبات من المسلمات العفيفات قد تلوثت فى أرض الشيشان بدون أحياء أمة ثكلى قد ماتت .. إحياءها بفريضة الجهاد .
وآلاف المساجد قد هدمت فى أسبانيا مع الموالاة الكاملة للمنتسبين للإسلام هناك بدون أن يكون صدع بالحق وإظهار للعداوة وللعقيدة الإسلامية .
وبلاد وممالك ضاعت من أمتنا الإسلامية بدون إقامة الحجة على الدنيا كلها.. - لقد أقام المجاهدون الحجة على الدنيا كلها مسلم وكافر وحصل الفرقان والتمايز- .
وقد ضاعت هذه الممالك عى أيدى الكفار الأصليين أو الطواغيت المرتدين فهى مصلحة غير متحققة .
لأن الداعية سواء والى أعداء الله أو عاداهم فإن السجن والإعتقال والمحاكمات العسكرية تنتظره صحيح أنه سيفتح له المجال ليدعو دعوة و ..... .

ولكن فى أى وقت يريد الطاغوت أن يضعه فى السجن سيضعه قال الله تعالى (إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون) .
وهذا فى رجل والاهم وألقى إليهم بالمودة وانظر إلى جماعة الإخوان المسلمين ما تركوا باباً من أبواب الموالاة للطاغوت إلا دخلوه ومع ذلك يحاكمهم الطاغوت محاكمات عسكرية .
وكذلك الداعية المشهور نشأت أحمد صرح لمراسل الجزيرة وسمعها العالم أجمع أنه طوال مدة دعوته كان يحارب التنظيمات والجماعات الجهادية وألقاه الطاغوت فى السجن وتساوى مع الذى يجاهدهم ويذبح فيهم وما زالت الاعتقالات والتعذيب مستمراً فى الدعوات التى ألفت بالمودة للطاغوت .
فمفسدة السجن متحققة سواء أقمنا التوحيد والجهاد أم هدمنا التوحيد والجهاد وانظر إلى هذه الحادثة العظيمة التى يتحدث عنها ابن تيميه هل المسلمون فجروا دولة التتار حتى يهم التتار على ديار الإسلام وتسقط الممالك واحدة تلو الأخرى ويقتل الخليفة فى بغداد ويحدث مذابح ومجازر واغتصابات وتهدم مساجد وغير ذلك كثير بل الفساد الكبير والفتنة العريضة هى موالاة أعداء الله وترك الجهاد وترك عداوة الطاغوت .
قال الله تعالى (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير) .
وقال تعالى (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض)

قال ابن تيميه رحمه الله تعالى (ورفع بها أقواماً إلى الدرجات العالية كما خفض بها أقواماً إلى المنازل الهاوية) .

وكذلك أيضاً والله نستشعر أن الله رفع أقواماً إلى الدرجات العالية – فى الأحداث التى تمر بها أمتنا الاسلامية الآن – وجعلهم أئمة هدى وأحيى بهم أمة الإسلام وفريضة الجهاد وفريضة الإيواء والنصرة وأنقذوا أمة الإسلام من الضياع والتشرد والذى والاستضعاف باعوا كل شئ وضحوا بالغالى

والرخيص ونحسب أن الله وضع لهم القبول فى الأرض جدد الله بهم ما اندرس من شرائع الإسلام
حق على كل مسلم أن يبذل دمه وماله لحمايتهم ونصرتهم .
كما خفق بها أقواماً إلى المنازل الهاوية فنزلت بهم أعمالهم حتى أصبحوا أئمة ردة وفساد وفسوق ونفاق وخيانة وعماله .
استباحوا كل شىء وانتهكوا كل شىء وتحالفوا مع الشيطان الجنى والإنسى على محاربة الإسلام خانوا إسلامهم وأمتهم ووطنهم ومبادئهم اغتصبوا نساءهم وذبحوا المجاهدين وحطموا الأحكام الإسلامية وأعلنوا الكفر والفسوق والعصيان وأسقطت الحادثة رموزاً يثق بهم قطاع كبير من الشباب المسلم الملتحي... جاء أحدهم (محمد حسان)يعلن فى الفضائيات وسمعه كل الدنيا ولو أن الرجل الذى يعيش فى الجبال أوفى الإسكيمو يرى الفضائيات لسمعه وهو يريد من المسلمين أن يتحاكموا إلى طاغوت الجامعة العربية .
عـذراً لـم يسـمعه أنصـار المدرسـة السـلفية لأنهـم وضـعوا أصابعهم فى آذانهم ..!!
وجاء أحدهم يصف المجاهدين بالخلايا الانتقامية الغير متزنة.. وجاء أحدهم وهو محمد عبد المقصود فى جريدة صوت بلدى السنة الأولى – العدد 4 – الجمعة 16 من شعبان 1422هـ – 2 نوفمبر 2001 بالخط الكبير العريض الأحمر .. حرق السفارات وقتل الآمنين والسياح لا يرضى الله ..وقال : أما تلك الأعمال المرفوضة كذلك الذى يحرق سفارة أو يقتل أمريكيا فهذه مصيبة لأن أهل العلم حينما يتكلمون إنما يتكلمون عن الحرب أما الذى تسمح له بدخول بلدك آمنا فهو ليس حربياً بل هو رجل له أمان فلا يجوز أبداً أن تعتدى لا على دمه ولا ماله ولا عرضه لأن لذلك أحكام شرعية وليست الأمور بالعواطف !!!!
وفى نفس المجلة فى الصفحة الأولى رسالة حب - إلى الأخ العقيد / حسين بن بلال فى مدية الإسكندرية (..لماذا تأخذ هذا الموقف الصارم مندوب صحيفتنا ومكتب توزيعنا دون أن نسىء لسعادتكم فأنت دون أجهزة الشرطة فى ربوع مصر الذى حرصت على معاداتنا ونحن نبذل كل الجهد لنشيع الحب بين الناس فهلا بادلتنا مشاعرنا ....) انتهى

.أجهزة الشرطة التى ما تركت باباً من أبواب الكفر إلا دخلوه بجرأة ووقاحة وعلانية .
وهذا تصريح بالموالاة .... ولا منكر عليهم ولا معتزل لمجلتهم.

ثم قال ابن تيميه رحمه الله تعالى حيث تحزب الناس ثلاثة أحزاب : (حزب مجتهد فى نصر الدين وآخر خاذل له وآخر خارج عن شريعة الإسلام..)

وكذلك أيضاً فى هذه الحادثة التى نحن فيها حزب مجتهد فى نصر الدين وهم المجاهدون فى أفغانستان وكتائب الجهاد على مستوى العالم الإسلامى والعلماء والدعاه الصادعين بالحق .
وقسم خاذل له من المسلمين القاعدين ومن مدارس التثبيط والتخذيل والتعويق الذين يقيمون بحار الآراء وجبال الشبهات فى طريق الشباب الذى يريد أن يجاهد فى سبيل الله .
وآخر خارج عن شريعة الإسلام مثل الطواغيت المرتدون الخونة الذى وقفوا بكل قوتهم وتعاونهم وكامل تأييدهم وتكاتفهم ضد إخواننا المجاهدين فى أفغانستان .

ثم ذكر ابن تيميه سياق غزواته صلى الله عليه وسلم ثم قال (فكان من حكمة الله ورحمته بالمؤمنين أن ابتلاهم بما ابتلاهم به ليمحص الله الذين آمنوا وينيبوا إلى ربهم وليظهر من عدوهم ما ظهر منه من البغى والمكر والنكث والخروج عن شرائع الإسلام فيقوم بهم ما يستوجبون به النصر وبعدوهم ما يستوجب به الانتقام) .

وكذلك فى حادثنا هذه لقد ابتلى الله دولة الإسلام فى أفغانستان وهذا ابتلاء ليمحص الله به الذين آمنوا ليرجعوا إلى ربهم ..وقد حدث من المرتدين من الكفر والردة والغدر واعلان المنكرات والفسق والمذابح والاغتصاب ما نأمل أن ينتقم الله منهم انتقاماً شديداً .
وحدث من أمريكا الكافرة الظالمة المتكبرة من الدمار والخراب والقتل الجماعى ما نرجو من الله أن يدمرها تدميراً كاملاً شاملاً فى القريب العاجل إن شاء لله .

وقد قام فى المجاهدين ما يستوجبون به النصر والفتح والتمكين فقد قام فيهم رجل من السلف الصالح أحيى فريضة الإيواء والنصرة للمؤمنين المهاجرين المجاهدين الصادعين بالحق قال الله تعالى (والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً) إنه رجل أعاد إلى أذهاننا بيعة العقبة تلك البيعة المباركة التى انطلقت منها دولة الإسلام فى المدينة إنه رجل على استعداد أ يحارب الأحمر والأسود من جيوش الكفر وكتائب النفاق وأن يقاس نهكة الأموال ويتحمل قتل الأشراف وتمزق السيوف أحبابه وأنصاره وجنوده ويعض الفقر أمعاءه بأنيابه الحادة على أن يطيع الكفار مرة واحدة .
إنه رجل يضحى بملك بلاد شاسعة وبتاج السلطة المتلألئ الوضاء المغرى من أجل إيواء الفارين بدينهم ويمنعهم مما يمنع منه نساءه وأولاده .
إن بلاده وشعبه يمطرون بأعاصير القنابل التى تنفجر عن براكين من الحمم الحارقة والنار المشتعلة ومع ذلك يزداد تمسكاً بإسلامه وإيمانه إن صوت الصواريخ التى تنزل على رعيته وأهله مثل الرعد القاصف ..إن صوتها الذى يخلع القلوب وتبلغ إلى الحناجر من شدة الخوف والهلع لا تهز موقفه ولا تثنية عن عزمه إن موقفه يجعلنا نشعر بثقته العظيمة فى نصر الله وهو محاصر من كل قوى الكفر والردة والنفاق والفسق وهو يقول سنقدم بوش وغيره إلى المحكمة الشرعية إن تاج الحكم وعرش السلطة فتنة عظيمة يقتل الابن أبيه من أجله ويقتل الأخ أخيه.. من أجله يخون المرء كل مبادئه يخون إسلامه ورجولته ووطنيته .
يرتمى المرء فى موالاة بل فى العمالة للكفار من أجله يصبح المرء حذاءاً لأمريكا من أجل أن يصبح رئيساً ومع ذلك ضحيت به بسهوله بدون تردد من أجل نصرة المؤمنين المهاجرين المجاهدين.
إن غيرك يبيع دينه ويطيع الكفار ويصبح جاسوساً من أجل زاوية لا تتعدى بعض الأمتار ومن أجل مدرسة ظاهرها دراسة الأسانيد وحقيقتها تجارة ورق وكتب إن غيرك يحارب كتبيه المجاهدين ويصفهم بالتطرف والإرهاب ويستنفر الطاغوت عليهم من أجل دعوة ملوثة بالجهل

وبانتهاك حرمات الله ويطلق أقزام الإرجاء تنهش لحوم الموحدين المجاهدين .
إن غيرك يبث عقيدة جهم بن صفوان ويخرب عقيدة الولاء والبراء من أجل معهد لدراسة قشور العلوم الشرعية وحقيقتة إحصاء خمسة آلاف أخ من الصحوة الإسلامية بصور وعنواين تفصيلية تسلم لجندى الطاغوت فى خمسة دقائق وهو يشرب الشاى .
إن غيرك يرسل رسالة حب إلى طاغوت من الطواغيت الذين يضعون العصى فى دبر المؤمنين ويفتخرون بأنهم كانوا يعلقون الأنبياء من أجل استخلاص المعلومات – من أجل مجلة محلية تبث شبهات وفتاوى تدمر الجهاد فى سبيل الله إن دعوة مؤسسة من البداية على موالاة الطاغوت ومسجداً مرصداً للموحدين المجاهدين ومعهداً لممارسة الجاسوسية يفتن الذين يتشدقون بالعلم الشرعى ويتمسحون بالسلفية من أجلهم يخون المرء عقيدته وأمانته ودينه وأمته وضميره وأنت أيها الجبل الشامخ تضحى بآلاف المساجد لا بزاوية تضحى ببلاد واسعة شاسعة لا ببعض الأمتار تضحى بآلاف المطابع التى تطبع آلاف الكتب لا بمجلة تضحى بآلاف المنابر والمبانى والمعاهد والمدارس العلمية لا بمعهد تضحى بعرش كبير لا بكرسى فى مجلس شركى يخلع المرء إيمانه وينسلخ من إسلامه ويقسم على احترام الدستور الطاغوتى حتى يجلس عليه يسمع الكفر والاستهزاء بآيات الله .
تضحى بأموال طائلة لا ببعض الدراهم المعدودات التى تساعد فيها أسر المعتقلين ليس من ماله ولا من مال أبيه وأمه.. تضحى بكل هذا وكثير غيرهم من أجل إيواء الفارين بدينهم المؤمنين المجاهدين المهاجرين الصادعين بالحق .
لقد أقمت الحجة على العلماء والدعاة والأغنياء والحكام والشيوخ والمسلمين إنك شامة فى جبين أمتنا الثكلى المكسورة الجناح إنك تاج فخر و إجلال يتوج رأس كل موحد مجاهد لقد كان من السهل أن تحتفظ بسلطتك وحكمك بالتمحك في قاعدة المصالح والمفاسد وتقسها ظاهرياً جزئياً وهمياً ظنياً وتقول إن شعبى يقتل ويشرد وبلادى تدمر والمساجد تهدم والأموال تنهب والأعراض تنتهك من أجل بعض الإرهابيين وتبعث – حتى لا تتشوه صورتك – إلى

علماء (السعودية)أو علماء مصر لإصدار فتوى فى الأحداث فسيقولون حتماً :
(يجب تسليم الإرهابيين وأن تقطع يد بن لادن وتسلم إلى أمريكا وتقطع رجله وتسلم إلى بريطانيا وتقطع رأسه وتسلم إلى أمير المؤمنين فهد الذى لم يلبس الصليب ولم يوالى أعداء الله ولم يبيح بلاد الحرمين للأنجاس والمومسات والذى لم يسرق أموال المسلمين وبترول الفقراء و يجب صلب الظواهرى وتسليم جثته لأمير المؤمنين مبارك الذى لم يدخل فى كل أبواب الكفر بجرأة ووقاحة وعلانية .)
وكنت تستطيع أن تفاوض الأمريكان أن يدلوا التحالف الشمالى ويشنقوا أمام عينيك ربانى وسياف ودوستم وغيرهم وسيموتون من الفرح إن فعلت ذلك وتفاوضهم أن يعطوك من الأموال والقوة العسكرية ويبنوا البنية التحتية لأفغانستان ويجعلوا كل الدول الكفرية الغربية والعربية أن يعترفوا بدولتك .
وتظل مع هذا تطبق الحدود وتلزم بالصلاة و ..... لكنك لم تفعل هذا لماذا..؟ لأن مصلحة الدين أهم من مصلحة النفس والعقل والمال والنسل والعرض .
ومصلحة التوحيد والجهاد أهم من مصالح فرائض الدين الأخرى وإن التوحيد هو معاداة أعداء الله وقطع الموالاة بين المؤمن والكافر .
يمنعك من هذا الإيمان الكامل الحى الذى يملأك نحسبك كذلك ولا نزكى على الله أحداً وإنك تفضل الموت فى سبيل الله على أن تسلم إمام المجاهدين الذى مسح العار عن جبين أمتنا الإسلامية الجريحة .
فهذا نموذج واحد ممن قام بالمجاهدين ما يستوجب بإذن الله نصر الله وفتحه القريب المبين العاجل.

ثم تكلم ابن تيميه عن بعض شعب النفاق الإعتقادى المخرج من الملة : (أو المسرة بانخفاض دينه أو المساءة بظهور دينه .....) .

وقد ظهر فى حادثتنا بعض شعب النفاق من التباكى على ما حدث فى أمريكا وسأنقل لك مقاله فى مجلة مشهورة

يكتب فيها العلماء والدعاة والمحدثين والوعاظ و .....
فى مصر .
مجلة التوحيد – السنة الثلاثون – العـدد السـابع رجـب 1422 هـ .
وستجد ف ى ه ذا المق ال ع دة أش ياء منك رة ..ولا منك ر ولا معتزل :-

1- موالاة الطاغوت وتصويب فعله فى محاربة الإسلام بزعم أنه إرهاب .
2- التباكى على الكفار .
3- القول بأن الحادث انتقام من الله ولا نؤيد الانتقام الإلهى .
4- تلبيس الحق بالباطل .

قال رئيس التحرير جمال سعد حاتم تحت مقال الانتقام الإلهى إن ما وقع بالأمس القريب فى الولايات المتحدة الأمريكية لهو كارثة بكل المقاييس إنه القتل والدمار والتشريد والإرهاب والعربدة تذوقها الشعب الأمريكى وتذوق معها المرارة وشرب من نفس الكأس الذى شربت منه الشعوب عربية وإسلامية طوال عشرات السنين الماضية تعانى القتل والتشريد والتجويع والحصار والضربات العسكرية وقتل الأطفال والنساء والعجزة كبار السن بلا ذنب فعلوه كل ما جنوه أنهم مسلمون وأدار المجتمع الدولى بقيادة أمريكا والغرب ظهره للمسلمين وأحداث فلسطين ليست ببعيدة وقتل الأطفال الأبرياء واقتلاع قرى بأكملها وتدميرها والقضاء على الأخضر واليابس وقتل الآلاف بل ذهبت أمريكا ومعها الغرب إلى حد التأييد الأعمى لإسرائيل وليس مؤتمر مناهضة العنصرية الذى عقدته الأمم المتحدة فى جنوب أفريقيا مؤخراً ببعيد حيث انسحبت الولايات المتحدة من أجل عدم إصدار قرار يدين إسرائيل .
ولسنا نؤيد ما حدث ولكن نقول إنه الانتقام الإلهى والدين الإسلامى الحنيف ينهى عن قتل الأبرياء وقتل الأطفال والنساء والعجزة والعابد فى صومعته وما حدث فى أمريكا هو قتل عشوائى لأبرياء لكن ما نتمناه أن يكون درساً لأمريكا حتى تعيد حساباتها مرة أخرى وأن تعى الدرس جيداً وتغير من سياساتها التى جلبت لها العداء والكراهية من

عشرات الدول ومئات الجماعات مما يصعب معه تحديد أى بلد أو أى جماعة وراء تلك الحوادث فى قارات العالم الخمس وبدلاً من المسارعة إلى توجيه الاتهام إلى المسلمين فى كل مكان فلتعد أمريكا ومعها الدول الغربية حساباتها وتقلع عن سياسة الكيل بمكيالين التى جعلت العالم كله يئن من تلك السياسات المريرة .وقد حذرت مصر على لسان رئيسها الولايات المتحدة والدول الغربية مراراً وتكراراً من ويلات الإرهاب الذى فتحوا له أذرعهم واليوم يذوقون مرارته وإن التقنيات الحديثة التى وصلت إليها لن تمنع الانتقام الإلهى فإن مكر الله أعظم من مكرهم والجزاء من جنس العمل (ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) أ.هـ

الملاحظ ان فى المقال حقا موافق عليه الطاغوت هو الكلام على أمريكا ومساعدتها لإسرائيل فالصحف العميلة الحكومية تتحدث عن هذا الموضوع ليل نهار ولا يستطيع الرجل أن ينفق الباطل إلا بشىء من الحق فهذا من تلبيس الحق بالباطل

ومع كل هذا الكلام الباطل لا منكر لا من الحوينى ولا البدوى ولا العدوى ولا البالى ولا يعقوب ولا حسان ولا عبد المقصود ولا غيره فهذا يدخل على أنه منهج موحد لهؤلاء المشايخ.

ثم تكلم ابن تيميه عن النفاق فقال (ويوجد فى المتصوفة والمتفقهة وفى المقاتلة والأمراء وفى العامة أيضاً) والمتصوفة هم العباد الرهبان والمتفقهة هم العلماء فهل يصح أن يقال لابن تيميه لحوم العلماء مسمومة وعادة متنقصيهم معلومة ..؟؟ وقد دس ابن تيميه السم فى العسل أو كيف يرميهم ابن تيميه بالنفاق وقد اختلف الصحابة فى قتال كذا وقتال كذا .

أم يصح أن ينهش هؤ لاء (العلماء) لحوم المجاهدين بشراهة وشراسة فإذا رد عليهم المسلم قالوا لحوم العلماء مسمومة فهل لحوم المجاهدين حلال ولحوم العلماء الذين يوالون أعداء الله ويثبطون الأمة عن الجهاد مسمومة ولحوم المجاهدين الذين تراق دماءهم ويضحون بكل شىء لاحياء الأمة الثكلى ومداواة جراحها حلال للعلماء..؟؟!

ثم ذكر ابن تيميه علامتين من علامات النفاق قائلاً (وهؤلاء المنافقون فى هذه الأوقات لكثير منهم ميل إلى دولة هؤلاء التتار لكونهم لا يلزمونهم شريعة الإسلام بل يتركونهم وما هم عليه وبعضهم إنما ينفرون عن التتار لفساد سيرتهم فى الدنيا واستيلائهم على الأموال واجترائهم على الدماء والسبى لا لأجل الدين .)

ثم قال ابن تيميه ..... ((ومن هذا الباب الإعراض عن الجهاد فإنه من خصال المنافقين .))

وهذا حال كثير من المسلمين فى الحوادث التى تمر بها الأمة الإسلامية فلهم ميل وموالاة إما إلى دولة الكفر الأصلي أو دولة المرتدين لكونهم لا يلزمونهم بشريعة الإسلام ..وما الشراذم القليلة الذين رأيناهم يحلقون لحاهم ويعلنون المنكرات حين دخل المرتدون كابول إلا من هذا القبيل ؛والكتاب والصحفيون والإعلاميون والإخباريين والشيوخ والدعاه الذين يهاجمون دولة الإسلام فى أفغانستان إلا من هذا القبيل.

ثم تكلم ابن تيميه عن **حالة الجبن والفزع الذى أصاب بعض الذين ولوا عن الجهاد**

وهذا أيضاً وصف منطبق على كثير من المسلمين شباب وشيبه الذى وجب عليهم الجهاد إما باستنفار الإمام أو نزول العدو بأرضهم وبلادهم أو بحضور الصف ومع ذلك يهربون من الجهاد وليعيشوا فى خيام فى العراء مع اللاجئين ..
والإمام المجاهد محمد عمر يناديهم : (لماذا تفر؟ و وأنت لا تملك شيئاً وأنا لا أقول أن تدافع عنى ولكن دافع عن إسلامك وإيمانك إن سلطتى وملكى وحكمى وحياتى فى خطر ....)

ثم تكلم ابن تيميه عن **حالة مريض القلب وهو الذى إيمانه ناقص عنده خشية لكنها ناقصة وعنده رجاء لكن ناقصة عنده محبة ولكنها ناقصة ويدخل فيها من باب أولى من فى قلبه نفاق وحالة من فى قلبه مرض إذا فرض عليه الجهاد تنزل به حالة أشبه بمن يعالج السكرات (ينظرون**

إليك نظر المغشى عليه من الموت) فهذا تخور قواه وتضعف أعصابه فلا يستطيع أن يحرك ساكناً من جسده فضلاً أن يقاتل ويقتل أعداء الله ..

ثم تكلم ابن تيميه عن **الذى يجاهد وهم المؤمنون ولفظة المؤمن تعنى الإيمان الكامل وهذا يتحقق إما بالصدع بالحق وإظهار العداوة مع قطع الموالاة بين الداعية وبين أعداء الله وقطع ما يحدث ما وراء الكواليس أو بالجهاد فى سبيل الله ولذلك قال ابن تيميه فحصر المؤمنين فيمن آمن وجاهد..**

ثم تكلم ابن تيميه عمن يأخذ المال بغير حقه أو يمنعه عن مستحقه من جميع الناس

ثم قال (وهذا يندرج فيه ما يؤكل بالباطل من وقف أو عطية على الدين كالصلاة والنذور التى تنذر لأهل الدين من الأموال المشتركة كأموال بيت المال ونحو ذلك)

فهذا فيمن يأكل المال بالباطل بشبهة دين وهذا أيضاً منطبق على كثير من الأحبار وهم العلماء والرهبان وهم العباد وشباب الصحوة الإسلامية بمجرد أن الشاب ربى لحيته وتعلم بعض المصطلحات ووقف على المنبر أصبح فى نظر نفسه شيخاً فجأة تتغير أحواله المالية جداً بل لمجرد أن وزع بعض الشرائط أباح لنفسه الأخذ من أموال الصدقات بشبهة أنه داعية ويخدم الدين وبمجرد أن وعظ بعض المواعظ أباح لنفسه راتباً شهرياً ومبلغاً متجمداً يكون به مشروعاً بحجة أنه يعلم الناس .

ثم تكلم ابن تيميه عن **أهمية الجهاد فى سبيل الله لا فى سبيل الرياسة ولا فى سبيل الحمية وهذا لا يكون إلا لمن قاتل ليكون الدين كله لله ولتكون كلمة الله هى العليا فالجهاد سنام العمل وانتظم فيه سنام جميع الأحوال الشريفة ففيه سنام المحبة والتوكل والصبر وموجباً للهداية التى هى محيطة بأبواب العلم وفيه حقيقة الزهد فى الحياة الدنيا وفى الدار الدنيا وفيه حقيقة الإخلاص لأن أعظم مراتب الإخلاص تسليم النفس والمال للمعبود فأى تربية أعظم من هذه التربية .**

ثم قال ابن تيميه رحمه الله (وكان مختصر القصة :أن المسلمين تحزب عليهم عامة المشركين الذين حولهم وجاءوا بجموعهم إلى المدينة ليستأصلوا المؤمنين)

وكذلك فى قصتنا هذه اجتمع الطواغيت كلهم على إمارة الإسلام فى أفغانستان من كفار أصليين من جميع ملل الكفر ومرتدون أفغان ومنافقون وطواغيت عرب وروافض كفرة .
ودخلت أمريكا بكامل قوتها وجاءوا من كل الجوانب من فوق ومن أسفل ومن الشمال ومن الجنوب

***ثم تكلم ابن تيميه رحمه الله عليه عن* ظن الناس بالله الظنونا وانظر وقارن بين ما يقوله المسلمون اليوم وبين تفسير ابن تيميه للظنون السيئة التى وقع فيها المسلمون فى الشام تجد أن ما يقوله قطرة فى بحر الظنون التى يغرق فيها المسلمون اليوم لقد سمعت المسلمون يقولون أن الطالبان انتهت ويجزم بذلك وعلاقة ربط هذه الظنون بالظن السيئ بالله أن الله وعد أهل الإيمان بالنصر والتمكين فى الأرض فمن يظن أن الله يخلف وعده وينصر أهل الكفر عن أهل الإيمان ولا يمكن لأهل التوحيد فقد ظن بالله ظن سوء .**

***ثم كرر ابن تيميه الكلام على* مرض القلب وهو من ضعف الإيمان إما بضعف علم القلب واعتقاده وإما بضعف عمله وحركته فيدخل فيه من ضعف تصديقه ومن غلب عليه الجبن والفزع وأن خوف لرجل من المخلوق دليل على زوال الصحة من القلب كما قال الإمام أحمد**
وأن هذا المرض يوجب الريب فى الأنباء الصادقة التى توجب كفر الإنسان من الخوف.

***ثم بدأ ابن تيميه يفسر قوله* (لا مقام لكم فارجعوا)**
واسمع بملء أذنيك ما يقول بعض الشيوخ والمسلمون أن المصلحة تقتضى تسليم المجاهدين كما جاء عن مشايخ (السعودية) وقيادات الإخوان الخائنة لأمتهم .

تيقن أن سنة الله تتكرر ولا تبديل لها وتحويل فانظر إلى تفسير من ثلاث تفاسير ذكرها ابن تيميه (بل المصلحة الاستسلام لهؤلاء كما قد استسلم لهم أهل العراق والدخول تحت حكمهم)

وقال ابن تيميه رحمه الله تعالى فى قوله تعالى (ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فراراً) .
(وهكذا أصاب كثيراً من الناس فى هذه الغزاة صاروا يفرون من الثغر إلى المقاتل والحصون وإلى الأماكن البعيدة كمصر ويقولون ما مقصودنا إلا حفظ العيال وما يمكن إرسالهم مع غيرنا وهم يكذبون فقد كان يمكنهم جعلهم فى حصن دمشق لو دنا العدو كما فعل المسلمون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كان يمكنهم إرسالهم والمقام للجهاد فكيف بمن فر بعد إرسال عياله .....) أ.هـ .

وكذلك فى حادثتنا هذه صار الناس يفرون إلى العراء يعيشون مع اللاجئين ومنهم من يستطيع الجهاد يفضل العيش مع النساء والأطفال وأصحاب الأعذار عن أن يدافع عن إسلامه وإيمانه والدولة الإسلامية الصحيحة الوحيدة التى على الأرض وهؤلاء اللاجئون الذين يستطيعون الجهاد مذمون تاركون واجب الجهاد بعد ما تعين عليهم .

***ثم تحدث ابن تيميه عن قوله تعالى* (ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا) .**
فقال (فأخبر أنه لو دخلت عليهم المدينة من جوانبها ثم طلبت منهم الفتنة وهى الافتتان عن الدين بالكفر أو النفاق – لأعطوها الفتنة ولجاءوها من غير توقف .وهذا حال أقوام لو دخل عليهم هذا العدو والمنافق المجرم ثم طلب منهم موافقته على ما هو عليه من الخروج عن شريعة الإسلام -وتلك فتنة عظيمة – لكانوا معه على ذلك كما ساعدهم فى العام الماضى أقوام بأنواع من الفتنة فى الدين والدنيا ما بين ترك واجبات وفعل محرمات إما فى حق الله وإما فى حق العباد كترك الصلاة وشرب الخمور وسب

السلف وسب جنود المسلمين والتجسس لهم على المسلمين ودلالتهم على أموال المسلمين وحريمهم وأخذ أموال الناس وتعذيبهم وتقوية دولتهم الملعونة وإرجاف قلوب المسلمين منهم إلى غير ذلك من أنواع الفتنة).

وكذلك فى حادثتنا هذه عندما دخل الأوباش المرتدون الخونة العملاء للكفرة كابول وسئلوا بعض المفتونين الفتنة أى الكفر والخروج عن شرائع السلام آتوها سراعاً . وقد رأينا بعض الفساق يحلقون لحاهم فرحاً بدخول المرتدين ورحيل المجاهدين ويصرحون بسعادتهم بالحرية الكفرية – وأعلن بعضهم المنكرات من رقص وموسيقى وسينما وصور عارية وظهرت بعض المرتدات المتبرجات فى الإذاعة والتلفاز هناك كعائدين الى أعمالهن به..وغير ذلك من مذابح واغتصابات وسرقات و ..... قد حدث فى حادثتنا هذه وكأن ابن تيميه يتحدث عن أفغانستان وليس دولة الشام.

ثم تكلم ابن تيميه عن **الذين عاهدوا الله أن لا يفروا ثم نكثوا وفى حادثتنا هذه أيضاً فى بداية القصف الأمريكى كان قائد من قوات الشمال كان قد انضم للإمارة الإسلامية ثم نكث ونقض عهده ورجع إلى قوات التحالف المرتد .**

ثم أخبر ابن تيميه قول الله تعالى **(قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلاً)**
فأخبر الله أن الفرار لا ينفع لامن الموت ولا من القتل فالفرار من الموت كالفرار من الطاعون ثم قال ابن تيميه (فاقتضى ذلك : أن الفرار من الموت أو القتل ليس فيه منفعة أبداً وهذا خبر الله الصادق فمن اعتقد أن ذلك ينفعه فقد كذب الله فى خبره) ثم ذكر ابن تيميه خالد ابن الوليد وهو يحتضر (لقد حضرت كذا وكذا صفاً وإن ببدنى بضعاً وثمانين ما بين ضـربة سيف وطعنه برمح ورمية بسهـم وهأنذا أموت على فـراش كما يموت العنز فلا قرت أعين الجبناء) .

ثم ذكر ابن تيميه قول الله تعالى (قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا)
فقال ابن تيميه رحمه الله (فوصف المثبطين عن الجهاد _وهم صنفان _ بأنهم إما أن يكونوا فى بلد الغزاة أو فى غيره فإن كان فيه عوقوهم عن الجهاد بالقول أو بالعمل أو بهما وإن كانوا فى غيره راسلوهم أو كاتبوهم بأن يخرجوا إليهم من بلد الغزاة ليكونوا معهم بالحصون أو بالبعد كما جرى فى هذه الغزاة
فإن أقواماً فى العسكر والمدينة وغيرها صاروا يعوقون من أراد الغزو وأقواماً بعثوا من المعاقل والحصون أو غيرها إلى إخوانهم هلم إلينا)

وكذلك فى حادثتنا هذه صار كثير من أهل العلم من يثبطون ويعوقون الشباب عن الجهاد بقولهم إنهم لا يريدون رجالاً وأنصاراً إن الجهاد بالنفس غير واقعى وغير عملى إن السعى على الأرملة والمسكين يعدل الجهاد .. لا .. لا تستطيع ..
وغير ذلك مما هو بحر لا ساحل له وما الشبهات التى بثها مشاهير العلماء من أن هذا جهاد طلب غير متعين أو قتل الأمريكيين المستأمنين لا يرضى الله أو يشوه وجه الإسلام الذى هو برىء من الإرهاب أو هو قتل النساء والأطفال المنهى عن قتلهم أو أن أمريكا لم تعلن الحرب على الإسلام حتى نعلن الحرب عليها أو قتل الأمريكان مصيبة ..و ... إلا من التثبيط والتعويق الذى يمارس على شباب الصحوة الإسلامية .

ثم قال ابن تيميه فى قوله تعالى (فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد)
(وهذا يكون بوجوه تارة يقول المنافقون للمؤمنين : هذا الذى جرى علينا بشؤمكم فإنكم أنتم الذين دعوتم الناس إلى هذا الدين وقاتلتم عليه وخالفتموهم .فإن هذا مقاله المنافقين للمؤمنين من الصحابة .
وتارة يقولون : أنتم الذين أشرتم علينا بالمقام هنا والثبات بهذا الثغر إلى هذا الوقت وإلا فلو كنا سافرنا قبل هذا لما أصابنا هذا .

وتارة يقولون – أنتم مع قلتكم وضعفكم – تريدون أن تكسروا العدو وقد غركم دينكم كما قال تعالى : (إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم)
وتارة يقولون : أنتم مجانين لا عقل لكم تريـدون أن تهلكـوا أنفسكم والناس معكم .
وتارة يقولون : أنواعاً من الكلام المؤذى الشديد وهم مع ذلك أشحة على الخير أى حراص على الغنيمة والمال الذى قد حصل لكم)

وقد سمعنا هذا الكلام من بعض الدعاة
فتارة يقولون : أدخلوا الأمة فى معركة غير متكافئة . وتارة يقولون ساعد الأمريكان المجاهدين فى قتالهم للروس وفوجئوا بانتصار المجاهدين واليوم نجنى الثمار أى الثمار المرة .
وتارة يقولون : لم يستشيروا أحداً ..وتارة يقولون : وقد حذرت مصر على لسان رئيسها الولايات المتحدة والدول الغربية مراراً وتكراراً من ويلات الإرهاب الذى فتحوا له أذرعهم واليوم يذوقون مرارته .(التوحيد السنة الثلاثون العدد السابع رجب–1422_رئيس التحرير جمال سعد حاتم).
إلى غير ذلك من الآيات التى تكلم عنها ابن تيميه تصف حال الناس فى غزوة الأحزاب ومقارنتها بحصار التتار للشام فجاءت هذه الكلمات منه مدرسة للتربية الإيمانية وعلاجا لأمراض القلوب من جبن وفزع وبخل ونفاق وخوف من غير الله ونقض العهود
ومنهج لمواجهة الشدائد والبأساء والضراء وحصنا حصيناً لشبهات المعوقين والمخذولين والمرجفين والمعوقين وكشفاً لنفسيات كثير من الفارين من الجهات والموت والظانين بالله ظن السوء والمقبلين على الفتنة إقبالا سريعاً .
ومن الآخذين لأموال المسلمين بغير حقه ومنعه عن مستحقه من الأحبار والرهبان وغير ذلك من التفسيرات الدقيقة لهذه الآيات فهذا كنز من كنوز ابن تيميه يستفيد منها كل مسلم يهتم بأحوال الإسلام والمسلمين ويحزن لمصابهم ويفرح لانتصاراتهم.

ثم ذكر ابن تيميه قول الله تعالى (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً)، ثم قال (فإن الله صرف الأحزاب عام الخندق بما أرسل عليهم من ريح الصبا ريح شديدة باردة وبما فرق بين قلوبهم حى شتت شملهم ولم ينالوا خيراً إذا كان همهم فتح المدينة والاستيلاء على الرسول والصحابة كما كان هم هذا العدو فتح الشام والاستيلاء على من بها من المؤمنين فردهم بغيظهم حيث أصابهم من الثلج العظيم والبرد الشديد والريح العاصف والجوع المزعج ما الله به عليم)

وكذلك فى حادثتنا هذه ونسأل الله أن يشتت شمل المرتدين ويجعل كيدهم فى نحورهم وأسلحتهم فى صدورهم وأن يرد الأمريكان بغيظهم لا ينالوا خيراً وينصر الله المجاهدين نصرا عظيما وان يفتح عليهم فتحاً مبيناً إنه ولى ذلك والقادر عليه .

ومع رسالة ابن تيميه رحمه الله تعالى :

العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام

(ابن تيميه)

¬ كتبه الشيخ ، علامة الزمان ، تقى الدين ، أبو العباس : أحمد بن تيميه ، رحمه الله ورضى عنه :

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى من يصل إليه من المؤمنين والمسلمين

سلام الله عليكم ورحمة الله وبركاته ، فأنا نحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، وهو للحمد أهل ، وهو على كل شىء قدير ، ونسأله أن يصلى على صفوته من خليقته ، وخيرته من بريته ، محمد عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما .

أما بعد : فقد صدق الله وعده ، ونصر عبده , وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم

ينالوا خيراً ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً عزيزاً) والله تعالى يحقق لنا تمام الكلام بقوله : (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً ، وأورثكم أرضهم وديارهم ، وأموالهم ، وأرضاً لم تطئوها وكان الله على كل شىء قديراً)

فإن هذه الفتنة التى ابتلى بها المسلمون مع هذا العدو المفسد ، الخارج عن شريعة الإسلام ، قد جرى فيها شبيه ماجرى للمسلمين مع عدوهم على عهد رسول صلى الله عليه وسلم فى المغازى التى أنزل الله فيها كتابه ، وابتلى بها نبيه والمؤمنين : ما هو أسوة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً إلى يوم لقيامة ، فإن نصوص الكتاب والسنة ، اللذين هما دعوة محمد صلى الله عليه وسلم ، يتناولان عموم الخلق بالعموم اللفظى والمعنوى ، أو بالعموم المعنوى ، وعهود الله فى كتابه وسنة رسوله تنال آخر هذه الأمة كما نالت أولها ، وأنما قص الله علينا قصص من قبلنا من الأمم لتكون عبرة لنا فتشبه حالنا بحالهم , ونقيس أواخر الأمم بأوائلها : فيكون للمؤمن من المتأخرين شبه بما كان للكفر والمنافق من المتقدمين .

كما قال تعالى لما قص قصة يوسف مفصلة ، وأجل ذكر قصص الأنبياء . ثم قال : (لقد فى قصصهم عبره لأولى الألباب . ما كان حديثاً يفترى أى أى هذه القصص المذكورة فى الكتاب ليست بمنزلة ما يفترى من القصص المكذوبة كنحو ما يذر فى الحروب ، وفى السيرة المكذوبة .

وقال تعالى ، لماذا قصه فرعون : (فأخذه الله نكـال الآخـر والأولى . إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى) .

وقال فى سيرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مع أعدائه ببدر وغيرها (قد كان لكم آية فى فئتين التقتا : فئه تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار) .

وقال تعالى فى محاصرته لبنى النضير (هو الذى أخرج كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخرجون

بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين . فاعتبروا يا أولى الأبصار) .
فأمرنا أن نعتبر بأحوال المتقدمين علينا من هذه الأمة ، وممن قبلها من الأمم . وذكر فى غير موضع : أن سنته فى ذلك مطردة ، وعادته مستمرة .
فقال تعالى : (لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً . ملعونين أينما ثقفوا أخذوه وقتلوا تقتيلا سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) .
وقال تعالى : (ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) .
وأخبر سبحانه أن دأب الكافرين من المستأخرين كدأب الكافرين من المستقدمين .
فينبغى للعقلاء أن يعتبروا بسنة الله وأيامه فى عباده . ودأب الأمم وعاداتهم ، ولا سيما فى مثل هذه الحادثة العظيمة التى طبق الخافقين خبرها ، واستطار فى جميع ديار الإسلام شرها ، وأطلع فيها النفاق ناصية رأسه ، وكشر فيها الكفر عن أنيابه وأضراسه ، وكاد فيه عمود الكتاب أن يجتث ويخترم ، وجعل الإيمان أن ينقطع ويصطلم ، وعقر دار المؤمنين أن يحل بها البوار ، وأن يزول هذا الدين باستيلاء الفجرة التتار . وظن المنافقون والذين فى قلوبهم مرض أن ما وعدهم الله ورسوله إلا غروراً وأن لن ينقلب حزب الله ورسوله إلى أهليهم أبداً وزين ذلك فى قلوبهم وظنوا ظن السوء وكانوا قوماً بوراً . ونزلت فتنة وتركت الحليم فيها حيران ، وأنزلت الرجل الصاحى منزله السكران . وتركت الرجل اللبيب لكثرة الوسواس ليس بالنائم ولا اليقظان ، وتناكرت فيها قلوب المعارف والإخوان ، وحتى بقى للرجل بنفسه شغل عن أن يغيث اللهفان . وميز الله فيها أهل البصائر والإيقان ، من الذين فى قلوبهم مرض أو نفاق وضعف إيمان ورفع بها أقواماً إلى الدرجات العالية . كما خفض بها أقواماً إلى المنازل الهاوية ، وكفر بها عن آخرين أعمالهم الخاطئة ،

وحدث من أنواع البلوى ما جعلها قيامه مختصره من القيامة الكبرى .
فإن الناس تفرقوا فيها ما بين شقى وسعيد ، كما يتفرقون كذلك فى اليوم الموعود . وفر الرجل فيها من أخيه أمه وأبيه ، إذ كان لكل امرئ منهم شأن يغنيه ، وكان من الناس من أقصى همته النجاة بنفسه ، لا يطوى على ماله ولا ولده ولا عرسه . كما أن منهم من فيه قوة على تخليص الأهل والمال ، وآخر فيه زيادة معونة لمن هو منه ببال . وآخر منزلته منزلة الشفيع المطاع . وهم درجات عند الله فى المنفعة والدفاع ، ولم تنفع المنفعة الخالصة من الشكوى إلا الإيمان والعمل الصالح ، والبر والتقوى ، وبليت فيها السرائر ، وظهرت الخبايا التى كانت تكتمها الضمائر، وتبين أن البهرج من الأقوال والأعمال يخون صاحبه أحوج ما كان إليه فى المآل . وذم سادته وكبراءه من أطاعهم فأضلوه السبيل .
كما حمد ربه من صدق فى إيمانه فاتخذ مع الرسول سبيلا ، وبأن صدق ما جاءت به الآثار النبوية من الأخبار بما يكون ، وواطأتها قلوب الذين هم فى هذه الأمة محدثون . كما تواطأت عليه المبشرات التى أريها المؤمنون ، وتبين فيها الطائفة المنصورة الظاهرة على الدين ، الذين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم إلى يوم القيامة .
حيث تحزب الناس ثلاثة أحزاب : حزب مجتهد فى نصر الدين ، وآخر خاذل له ، وآخر خارج عن شريعة الإسلام .وانقسم الناس ما بين مأجور ومعذور ، وآخر قد غره بالله الغرور ، وكان هذا الامتحان تمييزاً من الله وتقسيماً ، ليجزى الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيماً .
ووجه الاعتبار فى هذه الحادثة العظيمة : أن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وشرع له الجهاد إباحة له أولاً ، ثم إيجاباً له ثانياً ، لما هاجر إلى المدينة ، وصار له فيها أنصار ينصرون الله ورسوله ، فغزا بنفسه صلى الله عليه وسلم مدة مقامه بدار الهجرة ، وهو نحو عشر سنين : بضعاً وعشرين غزوة . أولها بدر وآخرها تبوك . أنزل الله فى أول مغازية سورة الأنفال؛ وفى آخرها سورة براءة وجمع بينهما فى

المصحف لتشابه أول الأمر وآخره . كما قال أمير المؤمنين عثمان – لما سئل عن القرآن بين السوريتين من غير فصل بالبسملة .
وكان القتال منها فى تسع غزوات .
فأول غزوات القتال : بدر ، وآخرها حنين : والطائف .
وأنزل الله فيها ملائكته كما أخبر به القرآن ، ولهذا صار الناس يجمعون بينهما فى القول ، وإن تباعد ما بين الغزوتين مكاناً وزماناً .
فإن بدراً كانت فى رمضان ، فى السنة الثانية من الهجرة ، ما بين المدينة ومكة ،شامى مكة ، وغزوة حنين فى آخر شوال من السنة الثامنة ، وحنين واد قريب من الطائف ، شرقى مكة . ثم قسم النبى صلى الله عليه وسلم غنائمها بالجعرانة واعتمر عمرة الجعرانة .
ثم حاصر الطائف فلم يقاتله أهل الطائف زحفاً وصفوفاً وإنما قاتلوه من وراء جدار فآخر غزوة كان فيها القتال زحفاً واصطفافاً : هى غزوة حنين .
وكانت غزوة بدر أول غزوة ظهر فيها المسلمون على صناديد الكفار ، وقتل الله وأسر رءوسهم ، مع قلة المسلمين وضعفهم ، فإنهم كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر ، ليس معهم إلا فرسان ، وكان يعتقب الاثنان والثلاثة على البعير الواحد ، وكان عدوهم بقدرهم أكثر من ثلاث مرات ، فى قوة وعدة وهيئة وخيلاء .
فلما كان من العام المقبل غزا الكفار المدينة ، وفيها النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فخرج إليهم النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى نحو من ربع الكفار ، وتركوا عيالهم بالمدينة , لم ينقلوهم إلى موضع آخر . وكانت أولاً الكرة للمسلمين عليهم ، ثم صارت للكفار ، فانهزم عامة عسكر المسلمين إلا نفراً قليلاً حول النبى صلى الله عليه وسلم ، منهم من قتل ، ومنهم من جرح ، وحرصوا على قتل النبى صلى الله عليه وسلم ، حتى كسروا رباعيته ، وشجوا جبينه ، وهشموا البيضة على رأسه ، وأنزل الله فيها نحواً من شطر سورة آل عمران ، من قوله : (وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال) . قال فيها : (إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم

الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم) .
وقال فيها : (ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الامر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين) .
وقال فيها : (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قاتم أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شىء قدير) .
وكان الشيطان قد نفق فى الناس أن محمداً قد قتل . فمنهم من تزلزل لذلك ، فهرب ومنهم من ثبت ، فقاتل ، فقال الله تعالى : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين) .
وكان هذا مثل حال المسلمين لما انكسروا فى العام الماضى ، وكانت هزيمة المسلمين فى العام الماضى بذنوب ظاهرة ، وخطايا واضحة ، من فساد النيات والفخر والخيلاء ، والظلم ، والفواحش والإعراض عن حكم الكتاب والسنة ، وعن المحافظة على فرائض الله ، والبغى على كثير من المسلمين الذين بأرض الجزيرة والروم .
وكان عدوهم فى أول الأمر راضياً منهم بالموادعة والمسالمة ، شارعاً فى الدخول فى الإسلام ، وكان مبتدئاً فى الإيمان والأمان ، وكانوا هم قد أعرضوا عن كثير من أحكام الإيمان .
فكان من حكمة الله ورحمته بالمؤمنين أن ابتلاهم بما ابتلاهم به ليمحص الله الذين آمنوا وينيبوا إلى ربهم ، وليظهر من عدوهم ما ظهر من البغى والمكر والنكث ، والخروج عن شرائع الإسلام ، فيقوم بهم ما يستوجبون به النصر ، وبعدوهم ما يستوجب به الانتقام .
فقد كان فى نفوس كثير من مقاتلة المسلمون ورعيتهم من الشر الكبير ما لو يقترن به ظفر بعدوهم – الذى هو على الحال المذكورة – لأوجب لهم ذلك من فساد الدين والدنيا مالا يوصف .

كما أن نصر الله المسلمين يوم بدر كان رحمة ونعمة ، وهزيمتهم يوم أحد كان نعمة ورحمه على المؤمنين . فإن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء فشكر الله كان خيراً له . وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له) .
فلما كانت حادثة المسلمين عام أول شبيهه بأحد ، وكان بعد أحد بأكثر من سنة – وقيل بسنتين – قد ابتلى المسلمين بغزوة الخندق ، كذلك فى هذا العام ابتلى المؤمنون بعدوهم ، كنحو ما ابتلى المسلمون مع النبى صلى الله عليه وسلم عام الخندق ، وهى غزوة الأحزاب التى أنزل الله فيها سورة الأحزاب ، وهى سورة تضمنت ذكر هذه الغزاة التى نصر الله فيها عبده صلى الله عليه وسلم ، وأعز فيها جنده المؤمنين ، وهزم الأحزاب الذين تحزبوا عليه وحده ، بغير قتال ، بل بثبات المؤمنين بإزاء عدوهم .
ذكر فيها خصائص رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحقوقه ، وحرمته وحرمة أهل بيته ، لما كان هو القلب الذى نصره الله فيها بغير قتال . كما كان ذلك فى غزوتنا هذه سواء . وظهر فيها سر تأييد الدين ، كما ظهر فى غزوة الخندق ، وانقسم الناس فيها كانقسامهم عام الخندق .
وذلك أن الله تعالى منذ بعث محمداً صلى الله عليه وسلم وأعزه بالهجرة والنصرة صار الناس ثلاثة أقسام :-
- قسماً مؤمنين ، وهم الذين آمنوا به ظاهراً وباطناً .
- وقسماً كفاراً ، وهم الذين أظهروا الكفر به .
- وقسماً منافقين ، وهم الذين آمنوا ظاهراً ، ولا باطناً .

ولهذا افتتح سورة البقرة بأربع آيات فى صفة المؤمنين وآيتين فى صفة الكافرين وثلاث عشر آية فى صفة المنافقين .
وكل واحد من الإيمان والكفر والنفاق له دعائم وشعب ، كما دلت عليه دلائل الكتاب والسنة ، وكما فسره أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه فى الحديث المأثور عنه فى الإيمان ودعائمه وشعبه .
فمن النفاق ما هو أكبر يكون صاحبه فى الدرك الأسفل من النار ، كنفاق عبد الله ابن أبى وغيره بأن يظهر تكذيب

الرسول أو جحود بعض ما جاء به أو بغضه أو عدم اعتقاد وجوب اتباعه ، أو المسرة بانخفاض دينه ، أو المساءة بظهور دينه ، ونحو ذلك : مما لا يكون صاحبه إلا عدواً لله ورسوله .
وهذا القدر كان موجوداً فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومازال بعده بل هو بعده أكثر منه على عهده ، لكون موجبات الإيمان على عهده أقوى. فإذا كانت مع قوتها كان النفاق موجوداً فوجوده فيما دون ذلك أولى .
وكما أنه صلى الله عليه وسلم كان يعلم بعض المنافقين ، ولا يعلم بعضهم ، كما بينه قوله : (وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردو على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم) .
كذلك خلفاؤه بعده ، وورثته قد يعلمون بعض المنافقين ولا يعلمون بعضهم . وفى المنتسبين إلى الإسلام من عامة الطوائف منافقون كثيرون ، فى الخاصة والعامة .
ويسمون الزنادقة .
وقد اختلف العلماء فى قبول توبتهم فى الظاهر ، لكون ذلك لا يعلم ، إذ هم دائماً يظهرون الإسلام .
وهؤلاء يكثرون فى المتفلسفة من المنجمين ونحوهم ، ثم فى الأطباء ، ثم فى الكتاب أقل من ذلك .
ويوجد فى المتصوفة والمتفقهة ، وفى المقاتلة والأمراء ، وفى العامة أيضاً .
ولكن يوجدون كثيراً فى نحل أهل البدع ، لاسيما الرافضة . ففيهم من الزنادقة والمنافقين ما ليس فى أحد من أهل النحل . ولهذا كانت الخرمية والباطنية والقرامطة والإسماعيلية والنصيرية ونحوهم من المنافقين والزنادقة منتسبة إلى الرافضة .
وهؤلاء المنافقون فى هذه الأوقات لكثير منهم ميل إلى دولة هؤلاء التتار لكونهم لا يلزمونهم شريعة الإسلام ، بل يتركونهم وما هم عليه .
وبعضهم إنما ينفرون عن التتار لفساد سيرتهم فى الدنيا ، واستيلائهم على الأموال واجترائهم على الدماء والسبى ، لا لأجل الدين .فهذا ضرب النفاق الأكبر .
وأما النفاق الأصغر : فهو النفاق فى الأعمال ونحوها ، مثل أن يكذب إذا حدث ويخلف إذا وعد ، ويخون إذا ائتمن ،

أو يفجر إذا خاصم . ففى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف وإذا ائتـمن خان) وفى رواية صحيحة (وإن صلى ، وصام ، وزعم أنه مسلم) .
وفى الصحيحين عن عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف . وإذا عاهد غدر . وإذا خاصم فجر) .
ومن هذا الباب : الإعـراض عن الجهاد . فإنه مـن خصال المنافقين قال النبى صلى الله عليه وسلم (من مات ولم يغزو ولم يحدث نفسه بالغزو على شعبة من نفاق) رواه مسلم .
وقد أنزل الله سورة براءة التى تسمى الفاضحة ، لأنها فضحت المنافقين . أخرجاه فى الصحيحين عن ابن عباس قال (هى الفاضحة مازالت تنزل (ومنهم ، ومنهم) حتى ظنوا أن لا يبقى أحد إلا ذكر فيها) .
وعن المقداد بن الأسود قال : (هى سورة البحوث . لأنها بحثت عن سرائر المنافقين) .
وعن قتادة قال : (هى المثيرة لأنها أثارت مخازى المنافقين) .
وعن ابن عباس قال : (هى المبعثرة) والبعثرة والإثارة متقاربان .
وعن ابن عمر (أنها المقشقشة) لأنها تبرئ من مرض النفاق يقال : تقشقش المريض إذا برأ .
وقال الأصمعى : وكان يقال لسورتى الإخلاص : المقشقشتان . لأنهما يبرئان من النفاق .
وهذه السورة نزلت فى آخر مغازى النبى صلى الله عليه وسلم : غزوة تبوك ، عام تسع من الهجرة . وقد عز الإسلام ، وظهر ، فكشف الله فيها أحوال المنافقين ووصفهم فيها بالجبن وترك الجهاد ، ووصفهم بالبخل عن النفقة فى سبيل الله ،والشح على المال . وهذان داءان عظيمان : الجبن والبخل .
قال النبى صلى الله عليه وسلم : (شر ما فى المرء شح هالع ، وجبن خالع) حديث صحيح ، ولهذا قد يكونان من

الكبائر الموجبة للنار . كما دل عليه قوله تعالى : (ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) ، وقال تعالى : (ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) .
وأما وصفهم بالجبن والفزع ، فقال تعالى : (ويحلفون بالله إنهم لمنكم وماهم منكم ولكنهم قوم يفرقون لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلاً لولوا إليه وهم يجمحون) . فأخبر سبحانه أنهم ، وإن حلفوا أنهم من المؤمنين ، فما هم منهم ، ولكن يفزعون من العدو ، فلو يجدون ملجأ يلجأون إليه من المعاقل والحصون التى يفر إليها من يترك الجهاد ، أو منارات – وهى جميع مغارة ، ومغارات ، سميت بذلك لأن الداخل يغور فيها ، أى يستتر كما يغور الماء . أو مدخلاً ، وهو الذى يتكلف الدخول إليه ، إما لضيق بابه ، أو لغير ذلك . أى مكاناً يدخلون إليه . ولو كان الدخول بكلفة ومشقة ، لولوا عن الجهاد إليه ، وهم يجمحون . أى يسرعون إسراعاً لا يردهم شىء ، كالفرس الجموح الذى إذا حمل لا يرده اللجام .
وهذا وصف منطبق على أقوام كثيرين فى حادثتنا ، فيما قبلها من الحوادث ، وبعدها .
وكذلك قال فى سورة محمد صلى الله عليه وسلم (إذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم) أى فبعداً لهم (طاعة وقول معروف . فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم) ، وقال تعالى : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون) ، فحصر المؤمنين فيمن آمن وجاهد .
وقال تعالى : (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين ، إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون) .
فهذا إخبار من الله بأن المؤمن لا يستأذن الرسول فى ترك الجهاد ، وإنما يستأذنه الذى لا يؤمن ، فكيف بالتارك من غير

استئذان ؟ ومن تدبر القرآن وجد نظائر هذا متضافرة على هذا المعنى .
وقال فى وصفهم بالشح (وما منعهم أن تقبل نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون) .
فهذه حال من أنفق كارها ، فكيف بمن ترك النفقة رأساً ؟
وقال (ومنهم من يلمزك فى الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون) .
وقال (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكو نن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون) .
وقال فى السورة (يا آيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) .
فانتظمت هذه الآية حال من أخذ المال بغير حقه أو منعه عن مستحقه من جميع الناس فإن الأحبار هم العلماء ، والرهبان هم العباد .
وقد أخبر أن كثيراً منهم يأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدون – أى يعرضون ويمنعون . ويقال : صد عن الحق ، صدوداً . وصد غير .
وهذا يندرج فيه ما يؤكل بالباطل : من وقف ، أو عطية على الدين . كالصلاة والنذور التى تنذر لأهل الدين ، ومن الأموال المشتركة . كأموال بيت المال ، ونحو ذلك فهذا فيمن يأكل المال بالباطل بشبهة دين .
ثم قال : (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله) فهذا يندرج فيه من كنز المال عن النفقة الواجبة فى سبيل الله . والجهاد أحق الأعمال باسم سبيل الله سواء كان ملكاً أو مقدماً ، أو غنياً ، أو غير ذلك .

وإذا دخل فى هذا ما كنز من المال الموروث والمكسوب . فما كنز من الأموال المشتركة التى يستحقها عموم الأمة – ومستحقها : مصالحهم – أولى وأحرى .

(فصل)

فإذا تبين بعض معنى المؤمن والمنافق . فإذا قرأ الإنسان سورة الأحزاب . وعرف من المنقولات فى الحديث ، والتفسير ، والفقه ، والمغازى كيف كانت صفة الواقعة التى نزل بها القرآن . ثم اعتبر هذه الحادثة بتلك : وجد مصداق ما ذكرنا . وأن الناس انقسموا فى هذه الحادثة إلى الأقسام الثلاثة . كما انقسموا فى تلك . وتبين له كثير من المتشابهات .

افتتح الله السورة بقوله : (يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين) وذكر فى أثنائها قوله : (وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً . ولا تطع الكافرين والمنافقين) ثم قال : (واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيراً ، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً) .

فأمره باتباع ما أوحى إليه من الكتاب والحكمة – التى هى سنته – وبأن يتوكل على الله .

فبالأولى تحقق قوله : (إياك نعبد) .

وبالثانية قوله : (وإياك نستعين) .

ومثل ذلك قوله : (فاعبده وتوكل عليه) ، وقوله : (عليه توكلت وإليه أنيب) .

وهذا وإن كان مأموراً به فى جميع الدين . فإن ذلك فى الجهاد أوكد . لأنه يحتاج إلى أن يجاهد الكفار والمنافقين . وذلك لا يتم إلا بتأييد قوى من الله . ولهذا كان الجهاد سنام العمل وانتظم سنام جميع الأحوال الشريفة .

ففيه سنام المحبة ن كما فى قوله : (فسوف يأت الله بقوم يحبهم ويحبونه أذله على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومه لائم) .

وفيه سنام التوكـل وسنام الصبر . فإن المجاهد أحوج الناس إلى الصـبر والتوكل ولهذا قال تعالى : (والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) ، وقال تعالى : (قال موسى لقومه استعينوا

بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) .
ولهذا كان الصبر واليقين – الذين هما أصل التوكل – يوجبان الإمامة فى الدين ، كما دل عليه قوله تعالى : (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) .
ولهذا كان الجهاد موجباً للهداية التى هى محيطة بأبواب العلم . كما دل عليه قوله تعالى : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا).
وفى الجهاد أيضاً : حقيقة الزهد فى الحياة الدنيا ، وفى الدار الدنيا .
وفيه أيضاً : حقيقة الإخلاص . فإن الكلام فيمن جاهد فى سبيل الله ، لا فى سبيل الرياسة ، ولا فى سبيل المال ولا فى سبيل الحمية ، وهذا لا يكون إلا لمن قاتل ليكون الدين كله لله ، ولتكون كلمة الله هى العليا .
وأعظم مراتب الإخلاص : تسليم النفس والمال للمعبود ، كما قال تعالى : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون) .
والجنة اسم للدار التى حوت كل نعيم . أعلاه النظر إلى الله ، إلى مادون ذلك مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، مما قد نعرفه وقد لا نعرفه . كما قال الله تعالى فيم رواه عن رسوله صلى الله عليه وسلم (أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر) .
فقد تبين بعض أسباب افتتاح هذه السورة بهذا .
ثم إنه تعالى قال : (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً) .
وكان مختصر القصة :-
أن المسلمين تحزب عليهم عامة المشركين الذين حولهم ، وجاءوا بجموعهم إلى المدينة ليستأصلوا المؤمنين .
فاجتمعت قريش وحلفاؤها من بنى أسد ، وأشجع ، وفزارة ، وغيرهم من قبائل نجد واجتمعت أيضاً اليهود من قريظة ، والنضير ، فإن بنى النضير كان النبى صلى الله عليه وسلم قد أجلاهم قبل ذلك ، كما ذكره الله تعالى فى سورة الحشر ، فجاءوا فى الأحزاب إلى قريظة ، وهم معاهدون للنبى

صلى الله عليه وسلم ، ومجاورون له ، قريباً من المدينة . فلم يزالوا حتى نقضت قريظة العهد ، ودخلوا فى الأحزاب ، فاجتمعت هذه الأحزاب العظيمة ، وهم بقدر المسلمين مرات متعددة ، فرفع النبى صلى الله عليه وسلم الذرية من النساء والصبيان فى آطام المدينة ، وهى مثل الجو اسق ، ولم ينقلهم إلى مواضع أخر ، وجعل ظهرهم إلى سلع – وهو الجبل القريب من المدينة ، من ناحية الغرب والشام – وجعل بينه وبين العدو خندقاً . والعدو قد أحاط بهم من العالية والسافلة . وكان عدواً شديد العداوة ، لو تمكن من المؤمنين لكانت نكايته فيهم أعظم النكايات .

وفى هذه الحادثة تحزب هذا العدو من مغل وغيرهم من أنواع الترك ، ومن فرس ومستعربة ، ونحوهم من أجناس المرقدة ، ومن نصارى من الأرمن وغيرهم ، ونزل هذا العدو بجانب ديار المسلمين ، وهو بين الإقدام والأحجام ، مع قلة من بإزائهم من المسلمين ومقصودهم الاستيلاء على الدار ، واصطلام أهلها . كما نزل أولئك بنواحى المدينة بإزاء المسلمين .

ودام الحصار على المسلمين عام الخندق – على ما قيل – بضعاً وعشرين ليلة ، وقيل : عشرين ليلة .

وهذا العدو عبر الفرات سابع عشر من ربيع الآخر ، وكان أول انصرافه راجعاً عن حلب لما رجع مقدمهم الكبير قازان بمن معه ، يوم الاثنين حادى ، أو ثانى عشر جمادى الأولى ، يوم دخل العسكر ، عسكر المسلمين إلى مصر المحروسة ، واجتمع بهم الداعى ، وخاطبهم فى هذه القضية . وكان الله سبحانه وتعالى لما ألقى فى قلوب المؤمنين ما ألقى من الاهتمام والعزم : ألقى فى قلوب عدوهم الروع والانصراف .

وكان عام الخندق برد شديد وريح شديدة منكرة ، بها صرف الله الأحزاب عن المدينة . كما قال تعالى : (فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها) .

وهكذا هذا العام أكثر الله فيه الثلج والمطر والبرد ، على خلاف أكثر العادات حتى كره أكثر الناس ذلك . وكنا نقول لهم : لا تكرهوا ذلك : فإن لله فيه حكمة ورحمة .

وكان ذلك من أعظم الأسباب التى صرف الله به العدو . فإنه كثر عليهم الثلج والمطر والبرد ، حتى هلك من خيلهم

ما شاء الله ، وهلك أيضاً منهم من شاء الله ، وظهر فيهم وفى بقية خيلهم من الضعف والعجز بسبب البرد والجوع ما رأوا أنهم لا طاقة لهم معه بقتال . حتى بلغنى عن بعض كبار المقدمين فى أرض الشام أنه قال : لا بيض الله وجوهنا . عدونا فى الثلج إلى شعره ، ونحن قعود لا نأخذهم ؟
وحتى علموا أنهم كانوا صيداً للمسلمين ، لو يططادونهم . لكن فى تأخير الله لصطيادتهم حكمة عظيمة .
وقال فى شأن الأحزاب : (إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنا لك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً) .
وهكذا هذا العام . جاء العدو من ناحيتى علو الشأم ، وهو شمال الفرات ، وهو قبلى الفرات . فزاغت الأبصار زيغاً عظيماً ، وبلغت القلوب الحناجر ، لعظم البلاء . لاسما لما استفاض الخبر بانصراف العسكر إلى مصر وتقرب العدو ، وتوجهه إلى دمشق ، وظن الناس بالله الظنونا .
هذا يظن أنه لا يقف قدامهم أحد من جند الشام ، حتى يصطلموا أهل الشام . وهذا يظن أنهم لو وقفوا لكسروهم كسرة ، وأحاطوا بهم إحاطة الهالة بالقمر . وهذا يظن أن أرض الشأم ما بقيت تسكن ، ولا بقيت تكون تحت مملكة الإسلام .
وهذا يظن أنهم يأخذونها ، ثم يذهبون إلى مصر فيستولون عليها ، لا يقفه قدامهم أحد ، فيحدث نفسه بالفرار إلى اليمن . ونحوها .
وهذا – إذا أحسن ظنه – قال : إنهم يملكونها العام ، كما ملكوها عام هولا كو سنة سبع وخمسين . ثم قد يخرج العسكر من مصر فيستنقذها منهم ، كما خرج ذلك العام وهذا ظن خيارهم .
وهذا يظن أن ما أخبره به أهل الآثار النبوية ، وأهل التحديث والمبشرات أمانى كاذبة ، وخرافات لاغية .
وهذا قد استولى عليه الرعب والفزع ، حتى يمر الظن بفؤاده مر السحاب ، ليس له عقل يتفهم ، ولا لسان يتكلم .
وهذا قد تعارضت عنده الإمارات ، وتقابلت عنده الإرادات ، لاسيما وهو لا يفرق من المبشرات بين الصادق والكاذب ولا

يميز فى التحديث بين المخطئ والصائب . ولا يعرف النصوص الأثرية معرفة العلماء ، بل إما أن يكون جاهلاً بها وقد سمعها سماع العبر ، ثم قد لا يتفطن لوجوده دلالتها الخفية . ولا يهتدى لدفع ما يتخيل أنه معارض لها فى بادئ الرؤية .
فلذلك استولت الحيرة على من كان متسماً بالاهتداء ، وتراجمت به الآراء تراجم الصبيان بالحصباء . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً . ابتلاهم الله بهذا الابتلاء ، الذى يكفر به خطيئاتهم ، ويرفع به درجاتهم ، وزلزلوا بما يحصل لهم من الرجفات ، ما استوجبوا به أعلى الدرجات . قال الله تعالى : (وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا) .
وهكذا قالوا فى هذه الفتنة فيما وعدهم أهل الوراثة النبوية ، والخلافة الرسالية وحزب الله المحدثون عنه حتى حصل لهؤلاء التأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم . كما قال الله تعالى : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) . فأما المنافقون فقد مضى التنبيه عليهم .
وأما الذين فى قلوبهم مرض فقد تكرر ذكرهم فى هذه السورة . فذكروا هنا وفى قوله : (لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة) وفى قوله : (فيطمع الذى فى قلبه مرض) .
وذكر الله مرض القلب فى مواضع فقال تعالى (إذا يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم) .
والمرض فى القلب كالمرض فى الجسد . فكما أن هذا هو إحالة عن الصحة والاعتدال ، من غير موت ، فكذلك قد يكون فى القلب مرض يحيله عن الصحة والاعتدال ، من غير أن يموت القلب ، سواء أفسد إحساس القلب وإدراكه ، أو أفسد عمله وحركته .
وذلك – كما فسروه – هو من ضعف الإيمان ، إما بضعف علم القلب واعتقاده ، وإما بضعف عمله وحركته . فيدخل فيه من ضعف تصديقه ومن غلب عليه الجبن والفزع ، فإن أدواء القلب من الشهوة المحرمة والحسد والجبن والبخل وغير ذلك ، كلها أمراض . وكذلك الجهل والشكوك والشبهات التى فيه .

وعلى هذا قوله : (فيطمع الذى فى قلبه مرض) هو إرادة الفجور ، وشهوة الزنا , كما فسروه به . ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم : (وأى داء أدوى من البخل ؟)
وقد جعل الله تعالى كتابه شفاء لما فى الصدور.
وقال النبى صلى الله عليه وسلم (إنما شفاء العى السؤال) .
وكان يقول فى دعائه : (اللهم إنى أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأهواء والأدواء) .
ولن يخاف الرجل غير الله إلا لمرض فى قلبه .
كما ذكروا أن رجلاً شكا إلى أحمد بن حنبل خوفه من بعض الولاة ، فقال : لو صححت لم تخف أحداً . أى خوفك من أجل زوال الصحة من قلبك .
ولهذا أوجب الله عباده ألا يخافوا حزب الشيطان ، بل لا يخافون غيره تعالى . فقال (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخوفهم وخافون إن كنتم مؤمنين) أى يخوفكم أولياءه .
وقال لعموم بنى إسرائيل تنبيهاً لنا (وإياى فارهبون) .
وقال : (فلا تخشوا الناس واخشون) ، وقال : (لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشونى) ، وقال تعالى : (اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون) ، وقال : (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله) ، وقال : (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله) ، وقال : (ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه) .
فدلت هذه الآية – وهى قوله تعالى : (إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض) على أن المرض والنفاق فى القلب يوجب الريب فى الأنباء الصادقة التى توجب كفر الإنسان من الخوف ، حتى يظنوا أنها كانت غروراً لهم ، كما وقع فى حادثتنا هذه سواء .
ثم قال تعالى : (وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا) . وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد عسكر بالمسلمين عند سلع ، وجعل الخندق بينه وبين العدو

. فقالت طائفة منهم : لا مقام لكم هنا ، لكثرة العدو فارجعوا إلى المدينة .
وقيل : لا مقام لكم على دين محمد ، فارجعوا إلى دين الشرك .
وقيل : لا مقام لكم على القتال ، فارجعوا إلى الاستئمان والاستجارة بهم .
وهكذا لما قدم هذا العدو كان من المنافقين من قال : ما بقيت الدولة الإسلامية تقوم فينبغى الدخول فى دولة التتار .
وقال بعض الخاصة : ما بقيت أرض الشام تسكن ، بل ننتقل عنها ، إما إلى الحجاز واليمن ، وإما إلى مصر .
وقال بعضهم : بل المصلحة الاسـتسلام لهؤلاء ، كما قد استسلم لهم أهل العراق والدخول تحت حكمهم .
فهذه المقالات الثلاث قد قيلت فى هذه النازلة ، كما قيلت فى تلك . وهكذا قال طائفة من المنافقين الذين فى قلوبهم مرض ، لأهل دمشق خاصة ، والشام عامة : لا مقام لكم فى هذه الأرض .
ونفى المقام بها أبلغ من نفى المقام ، وإن كانت قد أقرئت بالضم أيضاً. فإن من لم يقدر أن يقوم بالمكان فكيف يقيم به ؟
قال الله تعالى : (ويستأذن فريق منهم النبى 0 يقولون إن بيوتنا عورة 0 وما هى بعورة إن يريدون إلا فراراً) 0
كان قوم من هؤلاء المذمومين يقولون – والناس مع النبى صلى الله عليه وسلم عند سلع داخل الخندق ، والنساء والصبيان فى آطام المدينة : يا رسول الله ، إن بيوتنا عورة أى مكشوفة ، فليس بينها وبين العدو حائل 0
واصل العورة : الخالى ، الذى يحتاج إلي حفظ وستر ، يقال : أعور مجلسك إذا ذهب ستره ، أو سقط جداره ، ومنه عورة العدو 0
وقال مجاهد والحسن : أى ضائعة يخشى عليها السراق 0
وقال قتادة : قالوا : بيوتنا مما يلى العدو ، فلا نأمن على أهلنا ، فائذن لنا أن نذهب إليها لحفظ النساء والصبيان 0

قال الله تعالى : (وما هى بعورة) لأن الله يحفظها (إن يريدون إلا فراراً) فهم يقصدون الفرار من الجهاد ، ويحتجون بحجة العائلة 0
وهكذا أصاب كثيراً من الناس فى هذه الغزاة ، صاروا يفرون من الثغر إلي المعاقل والحصون وإلى الأماكن البعيدة كمصر ، ويقولون : ما مقصودنا إلا حفظ العيال ، وما يمكن ارسالهم مع غيرنا 0 وهم يكذبون 0 فقد كان يمكنهم جعلهم فى حصن دمشق ، لو دنا العدو كما فعل المسلمون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فقد كان يمكنهم إرسالهم والمقام للجهاد 0 فكيف بمن فر بعد إرسال عياله ؟
قال الله تعالى : (ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا) فأخبر أنه لو دخلت عليهم المدينة من جوانبها ثم طلبت منهم الفتنة – وهى الافتتان عن الدين بالكفر ، أو النفاق – لأعطوا الفتنة ، ولجاءوها من غير توقف 0
وهذه حال أقوام لو دخل عليهم هذا العدو المنافق المجرم ثم طلب منهم موافقته على ما هو عليه من الخروج عن شريعة الإسلام – وتلك فتنة عظيمة – لكانوا معه على ذلك كما ساعدهم فى العام الماضى أقوام بأنواع من الفتنة فى الدين والدنيا ، ما بين ترك واجبات وفعل محرمات ، أما فى حق الله ، وإما فى حق العباد كترك الصلاة ، وشرب الخمور ، وسب السلف ، وسب جنود المسلمين ، والتجسس لهم على المسلمين ، ودلالتهم على أموال المسلمين ، وحريمهم ، وأخذ أموال الناس ، وتعذيبهم ، وتقوية دولتهم الملعونة وإرجاف قلوب المسلمين منهم ، إلى غير ذلك من أنواع الفتنة 0
ثم قال تعالى : (ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا) ، وهذه حال أقوام عاهدوا ثم نكثوا ، قديماً وحديثاً ، فى هذه الغزوة 0
فإن فى العام الماضى ، وفى هذا العام : فى أول الأمر ، كان من أصناف الناس من عاهد على أن يقاتل ولا يفر ، ثم فر منهزماً ، لما اشتد الأمر 0
ثم قال الله تعالى : (قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل 0 وإذاً لاتمتعون إلا قليلا) فأخبر الله أن

الفرار لا ينفع لا من الموت ولا من القتل ، فالفرار من الموت كالفرار من الطاعون 0
ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : " إذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه " والفرار من القتل كالفرار من الجهاد 0
وحرف " لن " ينفى الفعل فى الزمن المستقبل ، والفعل نكرة ، والنكرة فى سياق النفى تعم جميع أفرادها 0
فأقتضى ذلك : أن الفرار من الموت أو القتل ليس فيه منفعة ابداً وهذا خبر الله الصادق فمن أعتقد أن ذلك ينفعه فقد كذب الله فى خبره 0
والتجربة تدل على مثل ما دل عليه القرآن 0 فإن هؤلاء الذين فروا فى هذا العام لم ينفعهم فرارهم ، بل خسروا الدين والدنيا وتفاوتوا فى المصائب ، والمرابطون الثابتون نفعهم ذلك فى الدين والدنيا. حتى الموت الذى فروا منهم كثر فيهم وقل فى المقيمين 0 فمات مع الهرب من شاء ، والطالبون للعدو والمعاقبون له لم يمت منهم أحد ، ولا قتل ..بل الموت قل فى البلد من حين خرج الفارون .. وهكذا سنة الله قديماً وحديثاً 0
ثم قال تعالى : (وإذاً لاتمتعون إلا قليلاً) يقول : لو كان الفرار ينفعكم لم ينفعكم إلا حياة قليلة ، ثم تموتون ، فإن الموت لابد منه 0
وقد حكى عن بعض الحمقى أنه قال : فنحن نريد ذلك القليل 0
وهذا جهل منه بمعنى الآية فإن الله لم يقل : إنهم يتمتعون بالفرار قليلاً .. لكنه ذكر أنه لا منفعة فيه أبداً 0
ثم ذكر جواباً ثانياً .. أنه لو كان ينفع لم يكن فيه إلا متاع قليل 0
ثم أنه ذكر جواباً ثالثاً ، وهو أن الفار يأتيه ما قضى له من المضرة ، ويأتى الثابت ما قضى له من المسرة ، فقال : (قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولايجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً) 0
ونظيره : قوله فى سياق آيات الجهاد (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة) ، وقوله: (يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزا لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل

الله ذلك حسرة فى قلوبهم والله يحيى ويميت والله بما تعملون بصير) 0
فمضمون الأمر : أن المنايا محتومة 0 فكم ممن حضر الصفوف فسلم ، وكم ممن فر من المنية فصادفته كما قال خالد بن الوليد لما احتضر " لقد حضرت كذا وكذا صفاً ، وإن ببدنى بضعاً وثمانين ، ما بين ضربة بسيف وطعنة برمح ، ورمية بسهم وها أنذا أموت على فراشى كما يموت العنز ، فلا قرت أعين الجبناء " 0
ثم قال تعالى : (قد يعلم اللـه المعـوقين منكـم والقـائلين لإخوانهم هلم إلينا) 0
قال العلماء : كان من المنافقين من يرجع من الخندق فيدخل المدينة ، فإذا جاءهم أحد قالوا له : ويحك أجلس ، فلا تخرج..ويكتبون بذلك إلى أخوانهم الذين بالعسكر : أن ائتونا بالمدينة ، فإنا ننتظركم ، يثبطونهم عن القتال 0 وكانوا لا يأتون العسكر إلا أن لا يجدوا بداً ، فيأتون العسكر ليرى الناس وجوههم فإذا غفل عنهم عادوا إلي المدينة 0 فانصرف بعضهم من عند النبى صلى الله عليه وسلم فوجد أخاه لأبيه وأمه وعنده شواء ونبيذ ، فقال : أنت هاهنا ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين الرماح والسيوف ؟ فقال : هلم إلى.. فقد أحيط بك وبصاحبك 0
فوصف المثبطين عن الجهاد – وهم صنفان – بأنهم إما أن يكونوا فى بلدة الغزاة ، أو فى غيره 0 فإن كانوا فيه عوقهم عن الجهاد بالقول ، أو بالعمل ، أو بهما ، وإن كانوا فى غيره راسلوهم ، أو كاتبوهم : بأن يخرجوا اليهم من بلدة الغزاة ليكونا معهم بالحصون ، أو بالبعد كما جرى فى هذه الغزاة
فإن أقواماً فى العسكر والمدينة وغيرها صاروا يعوقون من أراد الغزو ، وأقواماً بعثوا من المعاقل والحصون أو غيرها إلى أخوانهم : هلم إلينا 0
قال الله تعالى فيهم : (ولا يأتون البأس إلا قليلاً 0 أشحة عليكم) أى بخلاء عليكم بالقتال معكم ، والنفقة فى سبيل الله 0
وقال مجاهد : بخلاء عليكم بالخير والظفر والغنيمة 0
وهذه حال من بخل على المؤمنين بنفسه وماله ، أو شح عليهم بفضل الله : من نصره ورزقه الذى يجزيه بفعل غيره

0 فإن أقواماً يشحون بمعروفهم ، وأقواماً يشحون بمعروف الله وفضله ، وهم الحساد 0
ثم قال تعالى : (فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت) من شدة الرعب الذى فى قلوبهم يشبهون المغمى عليه وقت النزع 0 فإنه يخاف ويذهل عقله ، ويشخص بصره ، ولا يطرف ، فكذلك هؤلاء لأنهم يخافون القتل 0
(فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد) 0
ويقال فى اللغة " صلقوكم " وهو رفع الصوت بالكلام المؤذى ومنه " الصالقة "وهى التى ترفع صوتها بالمصيبة .. يقال : صلقة ،و سلقة – وقد قرأ طائفة من السلف بها لكنها خارجة عن المصحف – إذا خاطبه خطاباً شديداً قوياً 0
ويقال : خطيب مسلاق إذا كان بليغاً فى خطبته ، لكن الشدة هنا فى الشر لا فى الخير كما قال " بألسنة حداد " (أشحة على الخير) وهذا السلق بالألسنة الحادة 0
وهذا يكون بوجوه : تارة يقول المنافقون للمؤمنين : هذا الذى جرى علينا بشؤمكم فإنكم أنتم الذين دعوتم الناس إلى هذا الدين ، وقاتلتم عليه ، وخالفتموهم فإن هذا مقال المنافقين للمؤمنين من الصحابة 0
وتارة يقولون : أنتم الذين أشرتم علينا بالمقام هنا ، والثبات بهذا الثغر إلي هذا الوقت ، وإلا فلو كنا سافرنا قبل هذا لما اصابنا هذا 0
وتارة يقولون – أنتم مع قلتكم وضعفكم – تريدون أن تكسروا العدو ، وقد غركم دينكم ، كما قال تعالى : (إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ، ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم) 0
وتارة يقولون : أنتم مجانين ، لا عقل لكم ، تريدون أن تهلكوا أنفسكم والناس معكم 0
وتارة يقولون : أنواعاً من الكلام المؤذى الشديد ،وهم مع ذلك اشحة على الخير ، أى حراص على الغنيمة والمال الذى قد حصل لكم 0
قال قتادة : إن كان وقت قسمة الغنيمة ، بسطوا ألسنتهم فيكم ، يقولون : أعطوا ، فلستم بأحق بها منا ، فأما عند البأس فأجبن قوم وأخذل لهم للحق ، وأما عند الغنيمة فأشح قوم 0

وقيــل : أشــحة علــى الخيــر ، أى بخلاء بــه ، لا ينفعــون ، لا بأنفسهم ولا بأموالهم 0
وأصل الشح : شدة الحرص الذى يتولد عنه البخل والظلم من منع الحق ، وأخذ الباطل ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : " إياكم والشح ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، أمرهم بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالظلم فظلموا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا " 0
فهؤلاء أشحاء على إخوانهم ، أى بخلاء عليهم ، وأشحاء على الخير أى حراص عليه ، فلا ينفقونه ، كما قال : (وإنه لحب الخير لشديد) 0
ثم قال تعالى : (يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً) 0
فوصفهم بثلاثة أوصاف :
أحدها : أنهم لفرط خوفهم يحسبون الأحزاب لم ينصرفوا عن البلد ، وهذه حال الجبان الذى فى قلبه مرض ، فإن قلبه يبادر إلي تصديق الخبر المخوف ، وتكذيب خبر الأمن 0
الوصف الثانى : أن الأحزاب إذا جاءوا تمنوا أن لا يكونوا بينكم ، بل يكونون فى البادية بين الأعراب ، يسألون عن أنبائكم : إيش خبر المدينة ؟ وأيش جرى للناس ؟ 0
والوصــف الثــالث : أن الأحــزاب إذا أتــوا ، وهــم فيكــم ، لــم يقاتلوا إلا قليلاً 0
وهذه الصفات الثلاث منطبقة على كثير من الناس فى هذه الغزوة ، كما يعرفونه من أنفسهم ، ويعرفه منهم من خبرهم 0
ثم قال تعالى : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً)
فأخبر سبحانه أن الذين يبتلون بالعدو ، كما ابتلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلهم فيه اسوة حسنة حيث أصابهم مثل ما أصابه فليتأسوا به فى التوكل والصبر ، ولا يظنون أن هذه نقم لصاحبها ، وإهانة له ، فإنه لو كان كذلك ما أبتلى بها خير الخلائق ، بل بها ينال الدرجات العالية ، وبها يكفر الله الخطايا لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ، وإلا فقد يبتلى بذلك من ليس كذلك ، فيكون فى حقه عذاباً كالكفار والمنافقين 0

ثم قال تعالى : (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله 0 وما زادهم إلا أيماناً وتسليما) 0
قال العلماء : كان الله قد أنزل فى سورة البقرة (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه ، متى نصر الله ألا أن نصر الله قريب) فبين الله سبحانه – منكراً على من حسب خلاف ذلك – انهم لا يدخلون الجنة إلا بعد أن يبتلوا مثل هذه الأمم قبلهم " بالبأساء " ، وهى الحاجة والفاقه ، و " الضراء " ، وهى الوجع والمرض و " الزلزال " وهى زلزلة العدو 0
فلما جاء الأحزاب عام الخندق فرأوهم .. قالوا : (هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله) ، وعلموا أن الله قد ابتلاهم بالزلزال وأتاهم مثل الذين خلوا من قبلهم ، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً لحكم الله وأمره 0
وهذه حال أقوام فى هذه الغزوة ، قالوا ذلك 0
وكذلك قوله : (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه) أى عهده الذى عاهد الله عليه ، فقاتل حتى قتل ، أو عاش 0
" والنحب " النذر والعهد 0 وأصله من النحيب 0 وهو الصوت 0 ومنه الانتحاب فى البكاء ، وهو الصوت الذى تكلم به فى العهد 0
ثم لما كان عهدهم هو نذرهم الصدق فى اللقاء – ومن صدق فى اللقاء فقد يقتل – صار يفهم من قوله (قضى نحبه) أنه استشهد لا سيما اذا كان النحب : نذر الصدق فى جميع المواطن 0 فإنه لا يقضيه إلا بالموت 0 وقضاء النحب هو الوفاء بالعهد 0 كما قال : (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه) أى أكمل الوفاء 0 وذلك لمن كان عهده مطلقاً : بالموت أو القتل (ومنهم من ينتظر) قضاءه ، اذا كان قد وفى البعض ، فهو ينتظر تمام العهد 0
وأصل القضاء : الإتمام والإكمال 0
(ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيماً) 0

بين الله سبحانه أنه أتى بالأحزاب ليجزى الصادقين بصدقهم ، حيث صدقوا فى إيمانهم 0 كما قال تعالى : (إنما المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون) 0
فحصر الإيمان فى المؤمنين المجاهدين ، وأخبر أنهم هم الصادقون فى قولهم : آمنا 0 لا من قال ، كما قالت الأعراب " آمنا " والإيمان لم يدخل فى قلوبهم ، بل انقادوا واستسلموا 0
وأما المنافقون فهم بين أمرين : إمـا أن يعـذبهم ، وإمـا أن يتوب عليهم 0
فهذا حال الناس فى الخندق وفى هذه الغزوة 0
وأيضاً فإن الله تعالى ابتلى الناس بهذه الفتنة ، ليجزى الصادقين بصدقهم ، وهم الثابتون الصابرون ، لينصروا الله ورسوله ، ويعذب المنافقين أن شاء أو يتوب عليهم 0
ونحن نرجو من الله أن يتوب على خلق كثير من هؤلاء المذمومين ، فإن منهم من ندم والله سبحانه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات وقد " فتح الله للتوبة باباً من قبل المغرب عرضه أربعون سنة لا يغلقه حتى تطلع الشمس من قبله " 0
وقد ذكر أهل المغازى – منهم ابن اسحق – أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى الخندق " الآن نغزوهم ولا يغزونا " فما غزت قريش ولا غطفان ، ولا اليهود المسلمين بعدها ، بل غزاهم المسلمون ففتحوا خيبر ثم فتحوا مكة 0
كذلك ، إن شاء الله هؤلاء الأحزاب من المغل وأصناف الترك ، ومن الفرس ، والمستعربة ، والنصارى ، ونحوهم من أصناف الخارجين عن شريعة الإسلام : الآن نغزوهم ولا يغزونا ، ويتوب الله على من شاء من المسلمين ، الذين خالط قلوبهم مرض أو نفاق ، بأن ينيبوا إلي ربهم ويحسن ظنهم فى الإسلام ، وتقوى عزيمتهم على جهاد عدوهم 0
فقد أراهم الله من الآيات ما فيه عبرة لأولى الأبصار ، كما قال تعالى : (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً) 0
فإن الله صرف الأحزاب عام الخندق بما أرسل عليهم من ريح الصبا ..ريح شديدة باردة 0 وبما فرق بين قلوبهم ،

حتى شتت شملهم ، ولم ينالوا خيراً .. إذ كان همهم فتح المدينة والاستيلاء على الرسول والصحابة ، كما كان هم هذا العدو فتح الشام والاستيلاء على من بها من المؤمنين ، فردهم الله بغيظهم ، حيث اصابهم من الثلج العظيم ،و البرد الشديد ، والريح العاصف ، والجوع المزعج ، ما الله به عليم 0

وقد كان بعض الناس يكره تلك الثلوج والأمطار العظيمة التى وقعت فى هذا العام ، حتى طلبوا الاستصحاء غير مرة ، وكنا نقول لهم : هذا فيه خيرة عظيمة ، وفيه لله حكمة وسر فلا تكرهوه ، فكان من حكمته : أنه فيما قيل : أصاب قازان وجنوده ، حتى أهلكهم ، وهو كان فيما قيل : سبب رحيلهم ، وأبتلى به المسلمون ليتبين من يصبر على أمر الله وحكمه ممن يفر عن طاعته وجهاد عدوه 0

وكان مبدأ رحيل قازان فيمن معه من أرض الشام وأراضى حلب : يوم الإثنين ، حادى عشر جمادى الأولى ، يوم دخلت مصر عقيب السكر ، واجتمعت بالسلطان وأمراء المسلمين ، وألقى الله فى قلوبهم من الاهتمام بالجهاد ماألقاه ، فلما ثبت الله قلوب المسلمين صرف العدو ، جزاء منه ، وبياناً أن النية الخالصة والهمة الصادقة ينصر الله بها ، وان لم يقع الفعل ، وإن تباعدت الديار 0

وذكر أن الله فرق بين قلوب هؤلاء المغل والكرج وألقى بينهم تباغضاً وتعادياً ، كماألقى سبحانه عام الأحزاب بين قريش وغطفان ، وبين اليهود كما ذكر ذلك أهل المغازى 0 فإنه لم يتسع هذا المكان لأن نصف فيه قصة الخندق ، بل من طالعها علم صحة ذلك ، كما ذكره أهل المغازى ، مثل عروة بن الزبير ، والزهرى ، وموسى بن عقبة ، وسعيد بن يحيى الأموي ، ومحمد بن عائذ ، ومحمد بن اسحق ، والواقدى ، وغيرهم 0

ثم تبقى بالشام منهم بقايا ، سار إليهم من عسكر دمشق أكثرهم ، مضافا لعسكر حماة وحلب وما هنالك وثبت المسلمون بإزائهم ، وكانوا أكثر من المسلمين بكثير ، لكن فى ضعف شديد تقربوا إلي حماة وأذلهم الله تعالى ، فلم يقدموا على المسلمين قط 0 وصار من المسلمين من يريد الاقدام عليهم فلم يوافقه غيره ، فجرت مناوشات صغار ، كما قد كان يجرى فى غزوة الخندق حيث قتل على بن أبى

طالب رضى الله عنه فيها عمرو بن عبد ود العامرى لما اقتحم الخندق ، هو ونفر قليل من المشركين 0
كذلك صار يتقرب من بعض العدو فيكسرهم المسلمون ، مع كون العدو المتقرب أضعاف من قد سرى اليه من المسلمين ، وما من مرة إلا وقد كان المسلمون مستظهرين عليهم 0 وساق المسلمون خلفهم فى آخر النوبات ، فلم يدركوهم إلا عند عبور الفرات وبعضهم فى جزيرة فيها ، فرأوا أوائل المسلمين فهربوا منهم ، وخالطوهم ، واصاب المسلمون بعضهم وقيل : أنه غرق بعضهم 0
وكان عبورهم وخلو الشام منهم فى أوائل رجب بعد أن جرى ما بين عبور قازان أولاً وهذا العبور : رجفات ووجعات صغار ، وعزمنا على الذهاب إلي حماة غير مرة ، لأجل الغزاة لما بلغنا أن المسلمين يريدون غزو الذين بقوا 0 وثبت بازائهم المقدم الذى بحماة ، ومن معهم من العسكر ، ومن أتاه من دمشق ، وعزموا على لقائهم ، ونالوا أجراً عظيماً .. وقد قيل : إنهم كانوا عدة لحمانات، إما ثلاثة أو أربعة 0
وكان من المقدر : أنه إذا عزم الأمر وصدق المؤمنون الله يلقى فى قلوب عدوهم الرعب فيهربون ، لكن اصابوا من البليدات بالشمال مثل " تيزين " و " الفوعة " و " معرة مصرين " وغيرها ، ما لم يكونوا وطئوه فى العام الماضى 0 وقيل : إن كثيراً من تلك البلاد كان فيهم ميل إليهم بسبب الرفض ، وان عند بعضهم فرامين منهم لكن هؤلاء ظلمة ومن أعان ظالماً بلي به ، والله تعالى يقول : (وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون) 0
وقد ظاهرهم على المسلمين : الذين كفروا من أهل الكتاب ، من أهل " سيس " والأفرنج ، فنحن نرجو من الله أن ينزلهم من صياصيهم ، وهى الحصون – ويقال للقرون الصياصى – ويقذف فى قلوبهم الرعب 0
وقد فتح الله تلك البلاد ويغزوهم إن شاء الله فيفتح أرض العراق وغيرها ، وتعلو كلمة الله ويظهر دينه 0 فإن هذه الحادثة كان فيها أمور عظيمة جازت حد القياس وخرجت عن سنن العادة ،وظهر لكل ذى عقل من تأييد لهذا الدين ،

وعنايته بهذه الأمة ، وحفظه للأرض التى بارك الله فيها للعالمين بعد أن كاد الإسلام أن 000000
وكر العدو كرة فلم يلو عن ، وخذل الناصرون فلم يلووا على ، وتحير السائرون فلم يدروا من ، ولا إلى ، وانقطعت الأسباب الظاهرة ، وأهطعت الأحزاب القاهرة ، وانصرفت الفئة الناصرة ، وتخاذلت القلوب المتناصرة ، وثبتت الفئة الناصرة وأيقنت بالنصر القلوب الطاهرة ، واستنجزت من الله وعده العصابة المنصورة الظاهرة ، ففتح الله ابواب سمواته لجنوده القاهرة ، وأظهر على الحق آياته الباهرة ، وأقام عمود الكتاب بعد ميله ، وثبت لواء الدين بقوته وحوله ، وأرغم معاطس أهل الكفر والنفاق وجعل ذلك آية للمؤمنين إلي يوم التلاق 0
فالله يتم هذه النعمة بجمع قلوب أهل الإيمان على جهاد أهل الطغيان ، ويجعل هذه المنة الجسيمة مبدأ لكل منحة كريمة ، واساساً لإقامة الدعوة النبوية القويمة ، ويشفى صدور المؤمنين من أعاديهم ، ويمكنهم من دانيهم وقاصيهم ، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً 0
(انتهى) رسالة شيخ الاسلام ابن تيمية
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً 0